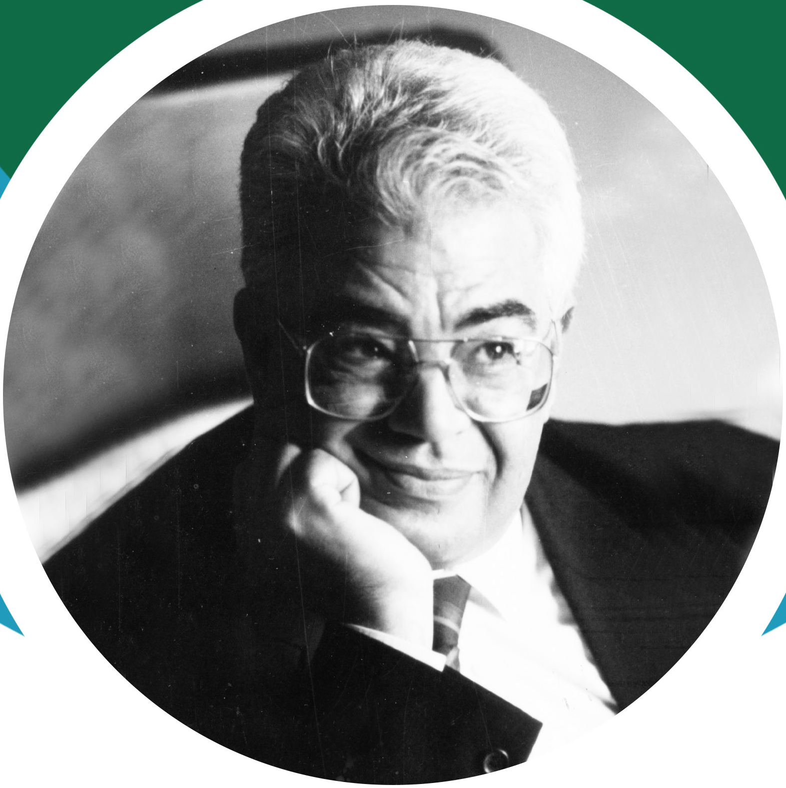

نجمة المساء

تأتي في الموعد

محمد جبريل

نجمة المساء

تأتي في الموعد

تأليف
محمد جبريل

هنداوي

نجمة المساء

محمد جبريل

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ‎+ ٤٤ (٠) ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٩٧٨ ١ ٥٢٧٣ ٣٥٠٨ ٠

صدر هذا الكتاب عام ٢٠١٦.
صدرت هذه النسخة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٤.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للسيد الأستاذ محمد جبريل.

إلى عادل الصبروتي
الحنين إلى الطفولة.

ربما كان النور عذابًا جديدًا
من يدري كم من أشياء ستظهر.

كافافيس

١

انتقلت — باختياري — إلى القاهرة، التقارير، المذكرات، البلاغات — لا أعرف التسمية الصحيحة — طاردتني، جعلت ترقيتي مستحيلة، الوقوف محلك سر هو أقصى ما أحصل عليه، سافرت وراء التصور أن الالتحاق بعمل آخر ربما يوقف ذلك كله، أشعر بحاجةٍ إلى الاختفاء من المطاردة، والتقاط أنفاسي، ومراجعة ما حدث.

متى؟ وكيف ينتهي؟

طالت وقفتي حتى رفع المهندس سمير العربي، رئيس النداء الآلي، رأسه من الأوراق على مكتبه: هل أنا بليد؟

هز رأسه دلالة عدم الفهم.

قلت في لهجةٍ معتذرة: هل أقصِّر في أداء عملي.

– أعتبرك ذراعي اليمنى!

– لماذا إذن لا أحصل على فرصتي في الترقية؟!

وهو يعود إلى الأوراق بين يدَيه: اسأل المهندس طنطاوي!

لماذا أدفع ثمن أخطاء غيري؟

الحجرة تشغي بالموظفين، بعدها عن الصالة الواسعة يغري بالجلوس، تناول الساندوتشات، احتساء الشاي، قراءة الصحف، تمتد المناقشات إلى أحوال السياسة، أعرف ما يتكلمون فيه، عندي آراء، لكنني أطبِّق درس الصمت بصرامة، أنصت إلى اختلاط عبارات المديح والإعجاب والسخط والإدانة، عرفت أن التقارير تسود بأيدي مجهولين، تنعكس سطورها على حياتي.

تطل من الأعين نظرات اتهام، لا أعرف متى تواجهني كلمات الإدانة، أحيا التوقُّع والتلفُّت ومراقبة التصرفات، أشعر بالمطاردة، ما يبدو مخفيًّا أراه أمامي وخلفي، أحاول ترويض نفسي على فَهْم ما قد يبدو غريبًا.

أحاول أن أسلم تفكيري إلى لا شيء، حتى تبتعد النظرات القاسية، لا أعرف كيف أقلب الأمر ولا كيف أتصرف، تظاهرت بالتجاهل واللامبالاة، كمن لا شأن لي بنظراتهم التي تخترقني.

لجأت إلى قهوة رأس التين، أبحث عن الطمأنينة في الصخب المتلاغط من حولي، أرد التحية على زبائن قُدامى، كانوا زملاء لأبي في مصلحة المواني والمنائر، جالسوه في القهوة حتى رحل، أطلب — في جلستي المنفردة — مجرد المؤانسة، أنفاس الناس في الحركة من حولي، وإن حل في داخلي إحساسٌ موحش بالفراغ، أشعر — وسط الزحام — أني وحيد في العالم، أخذت على نفسي عهدًا ألَّا أدخل في مناقشةٍ تلامس السياسة، لا شأن لي بما عدا الوظيفة، ذكرني زميل الوردية عبد الحافظ بجاتو بالمثل: «ابعد عن الشر، وغَنِّ له»، السياسة مؤذية، أظل صامتًا، ساكنًا، والمناقشات تعلو عن التضخم، وانهيار الجنيه أمام العملات الأجنبية، وانقطاع الكهرباء المتكرر، وغلاء فواتير الماء، وتذبذب مستوى الاتحاد السكندري، والعشوائيات، والزحام. أرفض الدخول في مناقشات، أو إبداء ملاحظة في قضية ما، أرفض القوانين التي لا أقتنع بها، لكنني لا أفكر في أن أخرج عليها، أخشى الاحتمالات والنتائج، ما أراه لا يعنيني، أُوثِر الحديث إلى نفسي، يتصاعد من داخلي ما يشرد بي في آفاقٍ لا نهاية لها.

أوقع على ساعة الميقات في موعد بداية الوردية، أو قبله، تضايقني عبارات اللوم، ومذكرات لفت النظر والخصم من المرتب، ربما تجر ما لا يخطر ببالي من جزاءات.

أحرص، فلا أتصرف بطريقة خاطئة. لمداراة الخطأ، أسخف نفسي، أو أني قصدت الدعابة. أراجع النظرات: هل تضعني في موقف الإعجاب، أو الكراهية، أو الإهمال فلا تلتفت ناحيتي؟

أكتم ميلي إلى الكلام وقول ما أعرفه، يداخلني خوفٌ من أن الحياة ستكون أصعب، يطول تحسبي قبل أن أنطق، أتدبَّر الكلمات، وقعها، تأثيرها في نفس مَن أكلمه، إن تكلمت، تجنبت كلمات قد تفسر بمعانٍ تضمر الفضح، كأنها الطعم في السنارة المتدلية داخل الموج.

أعود إلى نفسي، أراجع ما قلته، أعيد الحوار، فأتذكر ما نسيته، أرد على الأسئلة التي واجهتها بالصمت، أستبدل التعبيرات الواضحة بالكلمات التي أنطقها الارتباك. ثمة ما لا

أتبينه إلا بعد أن يظهر، ويملي إرادته، هو مُخفًى في داخلي، يبين عن ملامحه، ويهمس، في لحظةٍ لا أتوقعها، عندما يقتحمني الارتباك، أو الخوف، أشعر بمغص، أو برغبةٍ في التبول.

قال لي حميدة جرسون القهوة: أرفض أن أكون جاسوسًا.

حدجته بنظرة تتحسس ما قاله: ماذا تعني؟

– يحرضونني أن أراقب تصرفاتك، وأنقل ما تقوله في جلساتك الخاصة.

لمحت التردد في عينَيه: من هم؟

– المهندس طنطاوي.

قلت مستغربًا: أجلس في البيت بمفردي.

رسم على وجهه ملامح التأثر: البلد يعاني ظروفًا صعبة … الريس يهمه التوريث، والمعارضة قوية.

أزمعت ألَّا أبالي، أو حتى أدافع عن نفسي: لا شأن لي بالمعارضة ولا بالسياسة.

– أظن أنهم قلقون من ترددك على جامع طاهر بك.

أكرهت نفسي على الابتسام، حتى لا يفطن إلى ما أعانيه: هل منعوا الصلاة؟

– لا تفلت حتى صلاة الفجر.

لاحظت أنه يسرف في التلويح بيدَيه، والتعبير بأصابعه، قال: الإسلاميون أول المعارضين للتوريث.

ازدردت ريقي في خوف: حتى هؤلاء لا أعرفهم … لا أعرف أحدًا.

ثم وأنا أحاول أن أتماسك، فلا ينعكس الخوف على ملامحي: هل رأوني أجالس أحدًا من المصلين؟

كأن كل ما حولي تألب على حياتي، تثيرني النظرات والأسئلة والعبارات الملمزة.

لا أعرف ماذا يدبرون؟ ما المؤامرة التي يدبرونها؟

حرصت أن تكون تصرفاتي معلنة، في ضوء النهار، لا أحتمي بظلمة، ولا حتى ظلال. اخترت القهوة للفرار من شبهات التردد على الجامع.

أطمئن إلى مشاعري وتصرفاتي، أعرف ما أفعل، ما يؤلمني تصرفات الآخرين، ونظراتهم أيضًا، تشغلني الهمسات بالوشاية والشائعة والوقيعة، أعاني المراقبة والمتابعة والمطاردة.

حاولت أن أتغلب على ذلك كله بالسير، أسير — بخطوات متسارعة — على الكورنيش، أنظر إلى الأمام، لا أتلفت، لا تجذبني حتى المشاهد التي تأخذني غرابتها.

لم يفقد الرجل إصراره على المراقبة والمتابعة، كل ما يمتلك من انتباه يتجه به ناحيتي، يراقب، يلاحظ، ربما تابع خطواتي.

ظللت على ملاحظتي لتصرفاته.

أشعر أن أمرًا سوف يحدث، لا أخمن طبيعته، ولا أعرف مصدره، أنا لم أرتكب جريمة لأحاسب عليها، هو يعلم براءتي، لكنه يحاول اتهامي بما لم أفعله. لم يعُد أمامه سوى التخلص مني، إبعادي عن طريقه، قد يلفق لي تهمة تؤذيني.

عرفت أنه كثير السؤال عني: متى أدخل القهوة؟ لماذا اخترتها بالقرب من البيت؟ من أجالس؟ ما نوعية الآراء التي أطرحها، أو أناقشها؟

لم يكن يرفع عينيه عني، عاودني الإحساس بالخوف من انكشاف لحظة أتوقعها، يهتف فيها بنبرة اتهام: هذا أنت.

تستعصي الكلمات، فلا أجد ما أرويه، حقيقة ما جرى، أحيا التوقع، وأنتظر اللحظة القاسية، أجدني دائمًا في حالة دفاع عن النفس، ألتقط البدايات في أفعال الآخرين، أتأمل المشاعر في داخل نفسي، أعزف — بحكم طبيعةٍ لا أقوى على مغالبتها — عن اتخاذ المواقف التي أُومِن بها.

قال المهندس طنطاوي: كل ما أطلبه أن تكتب لي — كل أسبوع — بضعة أسطر عما يجري في السنترال.

لم يجاوز صيغة الأمر، لا يضحك، ولا يبتسم، كأنه لا يجد وقتًا لذلك.

وأنا أحاول لملمة مشاعري: لا أخالط أحدًا من زملائي.

وأطرقت حتى لا تلتقي عيناي بعينيه: ولا أعرف كتابة التقارير.

– لا نطلب تقارير. نريد ملاحظات. كلمات مما تكتبها في أجندتك الصغيرة.

دفع لي بورقةٍ عليها أرقام: ادخل على هذه الخطوط، لا تنشغل بما في المكالمات، أبلغني بمن يكلم من.

وضرب على المكتب براحته: هذا كل ما أريد.

تداخلت نظرات الشك والإدانة، لم أدرِ إن فعلت ما يستحقُّ هذه النظرات؟

في داخلي رغبة للرد بما يسكته، أفتش عن الكلمات، تملأ فمي، لكن الشجاعة تخونني، فأظل صامتًا.

عانيت — لإحساسي بأني مراقب — ارتباكًا دائمًا، أتلعثم في الكلام، أتحسَّس أي تصرف، لا أجد الشجاعة التي أعبر بها عن رأي قد يثير ضيق محدثي.

١

استغرقتني الحيرة، إلى حد العجز عن فهم ما إذا كانوا يخططون لإدانتي، أم أني أتصرف بما يريب؟

يربكني الخصام لكل ما حولي، الأعين المتلصصة، والأفواه الهامسة، والآذان المتنصتة، والسعي بالوقيعة، والتلميحات، والغمزات، والأحاديث الجانبية.

أشعر بالأعين المتسللة في بدايات خطوط النداء الآلي، لا أراها، لكنها تراني، تحاول التقاط ما تجد فيه ذنبًا، تواجهني باتهام ارتكابه، عدد لي عبد البصير سلامة أسماء المعدَّات التي أبدى المهندس طنطاوي شكَّه في تعرضها للسرقة، لا أعرف أشكالها، ولا رأيتها من قبل.

لو أن أحدًا صدق التهمة، ومال إلى الإدانة.

أفكر في الفرار، لكن الحيرة تأخذني إلى طرق متقاطعة، ومتداخلة، ومسدودة.

توقف الأولاد في الساحة المواجهة لزاوية خطاب عن لعب الكرة، أدركت — من نظراتهم المستغربة — أنهم لاحظوا تحرك شفتَيَّ بكلمات، كأني أحدث مَن لا يرونه. كنت أعدُّ ما أفسر به للمهندس طنطاوي وقفتي خلف النافذة، حجب الزجاج أصوات المتظاهرين، لكن قبضاتهم المتوعدة، وصيحاتهم الغائبة، وشت بما يطلبون.

لم أكن أتصور أني سأصعد الدرجات الرخامية إلى الباب العريض للمرسي أبو العباس، أدخل الصحن الواسع، تعلوه قبة من الزجاج الملون، وتنيره نجفة هائلة مدلاة من السقف، وعشرات اللمبات المبثوثة في الجدران والزوايا، أميل إلى اليسار، الحاجز المعدني يحيط بالمقام ذي الغطاء الأخضر، أردد ما قالته لي أم عربي عاملة البوفيه من عبارات شكوى الظلم الذي نغص حياتي، دون أن أعرف له سببًا.

قلت ما لقنته لي أم عربي، ثم ألقيت بقميص — لم أتعمد اختياره — في أرضية المقام. كانت هي المصدر الذي أبوح له بما أعانيه.

داخلني قلق وخوف ومشاعر أخرى مبهمة. حدست أن الداعي لهذه المشاعر، هو الخوف من التأنيب والزجر والتعنيف والملاحظات القاسية، الأسى يلفني لأني أستنفد قدرًا هائلًا من طاقتي، حتى أخفي ما أعانيه عن الآخرين، تمنيت أن أترك البيت، أسير في الشوارع، أساوم باعة شارع الميدان، أجلس إلى زملاء العمل، وجلساء القهوة، والمصلين في المساجد، دون أن أستسلم للخوف.

قل ترددي على قهوة رأس التين، ولم أعد أخالط المترددين عليها، حتى مَن ألفت مجالستهم. أكتفي بالإنصات إلى ما يقولون، أكتم ما أستطيع أن أبديَ فيه رأيًا.

حين رويت لسعد ما أعانيه، أحنى رأسه — لحظات — ثم رفعها، واجهني بما نقل الخوف إلى داخلي.

أضاف إلى خوفي قول سعد في لهجة محذرة: توقع أن يلفقوا لك تهمة.

تظاهرت باللامبالاة، لكن الكلمات نقشت في نفسي تأثيرًا قاسيًا. تشابكت، واختلطت، مشاعر الإحباط والإخفاق، والإحساس بالظلم والضياع، وعدم الثقة والفشل، والفقد واليأس، واللاجدوى والخوف من المجهول.

حدجني سعد بنظرة اتهام: مشكلتك هي الافتقار إلى قوة الإرادة.

وأنا أغالب التوتر: هل أضرب الخلق؟

– أقصد افتقادك القدرة على اتخاذ القرار.

لم يترك لي وقتًا أبحث فيه عن الكلمات المناسبة، أضاف قوله: إذا لم تكن قادرًا في لحظةٍ ما على استخدام العنف، فأنت لا تستحق حياتك.

ونظر إلى رصات الكتب، وتناثرها داخل الحجرة: اقرأ لنفسك ولي.

وأشاح بيده: ليس لي في القراءة.

والتوت شفتاه باستياء: بدلًا من أن ننحي باللائمة على الآخرين ... لماذا لا نراجع ما نفعله؟

تراجعت لاقتراب نظرته الغاضبة: لو أنك استبدلت بالقراءة حرصًا على أن تنال حقك ... ربما ابتعدت عن متاعب الوظيفة الصغيرة.

أعرف أنه موظف إداري بكلية الطب، لكنه لم يكن يحدثني عن عمله، والمتاعب المماثلة لما أواجهه، لا أتذكر أنه طلب نصيحة.

أزمعت ألَّا أكون متسامحًا مع أحد، ولا حتى مع نفسي. الصح هو ما سأفعله، لا يعنيني رد الفعل، أتكلَّم بما حرص الخائف في داخلي على إسكاته، لا قوة في العالم تستطيع إرغامي على فعل ما لا أقبله، ما لا أحبه.

شردت في قول سعد: لماذا لا تبحث عن عقد عمل في الخارج؟

وأنا أغالب ارتباكي: مؤهلي متوسط.

واسترقت إليه نظرة متفحصة: كبرت على السفر.

– لم تبلغ الأربعين، والدبلومات مطلوبة.

قال لي المهندس باسم العقيلي: ما رأيك في القاهرة؟

– زحام!

– أقصد رأيك في العمل بالقاهرة؟

١

تهيَّأت للرد، لم أجد الكلمات التي أحتاجها: أنا؟!

– لدينا طلب من موظف يطلب العمل في الإسكندرية ... ظروف عملكما متشابهة.

وداعب دملًا أسفل ذقنه: خذ قرارك.

لم أضيع وقتًا في الاستغناء عما لا أحتاج إليه، ومض في بالي حنين إلى فتاة لا أعرفها، ألتقيها في القاهرة، أحبها وتحبني، تحسن الإصغاء والفهم، ترفض المواقف المفاجئة والمتقلبة، تملك من الطيبة والحنان ما أتوق للعيش في ظله.

لم يكن يوم وصولي إلى القاهرة يومًا جيدًا.

قال لي السائق: تاكسي.

كنت أريد «تاكسي» بالفعل، في يدي حقيبتان؛ حقيبة ثيابي الشخصية، وحقيبة الكتب التي اخترتها من مكتبتي، وثلاثة أكياس بلاستيكية. أقلني التاكسي إلى شارع الأهرام بمصر الجديدة. قبلت عرض الموظف الذي بادلني موضعي أن يتيح لي استئجار شقته في القاهرة.

قال السائق: عشرون جنيهًا!

أهملت نصيحة بألَّا أدفع أكثر من عشرة جنيهات.

الباب من الحديد المنقوش تعلو به درجتان عن الرصيف، تفضي السلالم — في المدخل — إلى طرقةٍ واسعة، لجدرانها أفاريز من المصيص، في المواجهة بابان متجاوران، إلى اليمين باب مغلق، على بابه لافتة باسم عبد العليم بكري، وقف البواب على مدخل ما بدا أنه حجرته. أشار إلى الباب المفتوح، على اليسار، عرفت أنه باب الشقة التي سأستأجرها، يلاصقها سلم يصعد إلى الطوابق العليا.

لم أحب اللون البمبي الذي اختاره النقاش لطلاء الصالة، فكرت في أن أشير عليه بلون آخر، صوته المحمل بالعنف، دفعني إلى كتم ما اعتزمت قوله.

حاولت — في الأيام التالية — أن أزيلَ ما على الجدران من بقايا طلاء وبقع وخطوط، وأزيل الغبار من زجاج النوافذ.

٢

استعدتُ — وأنا أطيل النظر إليها — معنى الحنين: البعد، الغياب، الفقد، الوحشة، التوقع، تمثل ذلك كله في وقفتها الساكنة على باب الشقة، ما بين العاشرة والثانية عشرة، ملامحها أليفة، داخلني إحساس بأني رأيتها من قبل.

أين؟

ربما في شارع بغداد، أو شارع إسماعيل رمزي، أو في ميدان الجامع، أو أمام محال إبراهيم اللقاني وميدان روكسي.

منار؟

تلفتت حولها بتلقائية: اسمي مها ...

وأشارت إلى فوق: نحن في الطابق العلوي ... سقطت فانلة في المنور.

أفسحت لها الطريق.

تملكني ما يشبه الذهول، تيقظت في نفسي مشاعر تصورت أنها لم تعُد موجودة، حلَّت مشاعر أخرى فرضتها وقائع، وناس التقيتهم، ومصاعب واجهتها. غابت اللحظات القديمة، نفضتها الذاكرة.

تبدَّلت الأحوال، منار كأنها حلم بعيد، يداخله ما أذكره، وما لا أذكره، ما ثبت في الذهن، وما أنفض رأسي لأتأكد إن كان قد حدث بالفعل.

لماذا نسيت منار كل تلك السنوات، ثم تذكرتها الآن؟

لماذا ذكرتني بها هذه البنت؟

بدت السنوات الماضية مثل حلم غيبه الصحو، ها أنا أصحو على ما لم يغب عن حياتي. عرفت أن وجهها ظلَّ مطبوعًا في ذاكرتي، لم يختلط بوجوهٍ أخرى، ولا غيبه النسيان.

منار.

كانت في السن نفسها، وكنت في السادسة عشرة، أو أقل.

وجدتني في صباي، وطفولتها.

كنت قد نسيت تلك الفترة، غابت عن حياتي، اختفت من منطقة الوعي تمامًا، بدت — في محاولتي استعادتها — مشوشة، الأب موظف بوزارة التموين، منير اسمه الأول، لا أذكر بقية الأسماء، الأم تفيدة لا تعمل، البنات الثلاث، صغراهن منار، يفصلها أزيد من عشر سنوات عن البنتين اللتين تكبرانها، البنت الوسطى فكرية، لا أذكر اسم البنت الكبرى.

أدركت أني لم أنسها، ليس التكوين الجسدي وحده، ولا ملامح الوجه، وإنما المفردات والتعبيرات والعينان اللتان تبدوان كالمغمضتين حين يستغرقهما الكلام. أكثر من الأسئلة، أُطيل في الكلام، أحرص أن تكون جليستي، فلا تتركني، تستهويني طريقة كلامها، تلجأ إلى يدَيها في التعبير عما تريد قوله، تنطق القاف كافًا، والراء غينًا، عندما تضحك، يهتز كل جسدها.

أهملت النظرة اللائمة في عينَي أمي: العب مع بنت في سنك.

أجد في استجابة منار لصداقتي، ما يأخذني في عوالم الخيال، أخلقها لنفسي، أشياء كثيرة تلوح لي، لا أعرف كيف ألتقط طرف الخيط، ماذا أريد تمامًا، إذا لم أجد أشياء جميلة، فإني أخترعها، أصر أن تكون الدنيا من حولي جميلة، مبهجة.

بلغت السن التي تشحب فيها الرغبة، ربما ألتفت إلى الملامح الجميلة، لكنها لا تثيرني، الرغبة ساكنة، صامتة، لا تبوح إلا في أحيان متباعدة، مثل الإناء الذي يتقاطر فيه ماء المطر حتى يمتلئ، نظرة هذه الفتاة ألغت كل ما أعددت له نفسي، لا تشبه منار في ملامحها، وإن تشبهها في جسد المرحلة بين الطفولة والبلوغ، أذكر لدغة في صوت منار الهامس، السرسعة عالية في صوت الفتاة، بشرة منار البيضاء تختلف عن البشرة المائلة إلى السمرة، الأنف الدقيق المنمنم يختلف عن الأنف الأفطس، ذراعا منار دائمتا الحركة، وهذه البنت أرخت ذراعَيها، لا تكاد ترفعهما، حتى القدمان أذكر أصابع منار المطلية بالمانيكير، أصابع هاتَين القدمَين الحافيتَين مقصوصة، وعلاها الوسخ.

أعدت النظر، كأني أريد التثبُّت، ثم اتجهت إلى الناحية المقابلة، ربما لأتخلص من الارتباك.

منار!

طرف الخيط التقطته المصادفة، عند الظهر تأتي من مدرستها، تظل في شقتنا — في الطابق الثالث — حتى تعود أسرتها، يترامى النداء باسمها، تلقي التحية، وتنزل.

٢

فيما يُشبه ترتيب الأوقات تمضي أمي إلى عملها بسنترال المنشية، أتصور طريقها من صفر باشا إلى وكالة الليمون، ثم شارع الميدان، تعبر ميدان المنشية إلى مبنى السنترال في سعد زغلول، الطريق نفسها في العودة إلى البيت.

تتشاغل منار بتقليب المجلات التي أقرؤها، تشاهد الصور في آخر ساعة والمصور وأكتوبر والكواكب، تسأل، أجيب بما أعرفه.

عرضت أن نلعب الكوتشينة.

– تعرفين؟

– ألاعب إخوتي البصرة والكومي والشايب.

أدركت عدم إجادتها اللعب لما بسطت الأوراق بحيث أراها.

– بماذا تحكم؟

في نظرة غير فاهمة: ماذا؟

– الفائز يحكم على الخاسر.

انبثقت الفكرة كومضة، حدقت في عينيها، أتبين إذا كانت ستوافق على قولي.

ما طلبته حدث تمامًا: استلقت على الأرض، بين الكنبة المستطيلة والمكتبة، ثبتت نظرتها — كما طلبت — في السجادة الصغيرة، لا تحولها، عانيت الارتباك، وفقدان الرغبة، أتأملها في استسلامها واستكانتها، لا أعرف إن كانت تعد نفسها لما قد يغيب عن بالي، مجرد أن أنظر، وأتأمل، وأحدق، أنتزع الطمأنينة من توتر اللحظات، غمرني شعور بالانبساط، وأنا أرنو إلى رقادها المسترخي، المستسلم. نفذت أمري بالاستلقاء، تنتظر أوامري بالتخلي عن سكونها. لو أنها سألت، أو أبدت اعتراضًا، ربما غلبني الارتباك، يؤدي تململها إلى عجزي عن تدبر ما فعلت، وأنها ستجد في اللحظات — التي لا أعرف أسبابها — ما تحكيه لأهلها في الطابق الأول.

جذبني تكوينها الصبي، المتناسق، وملامحها الدقيقة، المتناغمة، البريئة، لكن الرغبة الطارئة جاوزت احتواء جمالها، خلت مشاعري من كل ما يرنو إلى الاقتراب والملامسة، مجرد أن أحدق في الجسد المضطجع أمامي، يتمدد نصفه العلوي على الكنبة، وتصعد الركبتان، يبدو الجسد متداخلًا في نفسه، هادئًا، ساكنًا، ربما حرك في نفسي عاطفة لم أقوَ على ردها.

استقرَّت مخيلتي على أنه لن يكون لي حظ كبير في إقامة علاقة مع بنت، لا أضع لها هيئة محددة، ولا ملامح أطمئن إليها، تتوه بها التصورات، فلا أستطيع استدعاءها.

تنبهت إلى سؤالها: خلاص؟

داخلتني نشوة لم أشعر بها من قبل.

لم يجاوز ما حدث إحساسي بطفولتها، حتى ملامستي لأجزاء من جسدها، فسرتها بحبي الدافق لطفولة الجسد والملامح، منعني الخجل — وربما الخوف — من اقتحامها بنظراتي، أسترق النظر إليها، مجرد النظر هو ما أطلبه، أطبقت أصابعي فلا تمتد — بقوة غالبة — إلى جسدها: الشعر الأسود، الناعم، تطوح حول رأسها، الأنف الدقيق، الشفتان المكتنزتان، الغمازتان في وجنتيها المصطبغتين بالحمرة، القدمان الصغيرتان، الناعمتا البشرة، تتحرك أصابعهما في توالٍ، كأنهما تنفضان قيدًا.

أغلقت الباب وراءها، ثم عُدت إلى المكان أتأمله، أستعيد ما حدث، ما لم أتصوره، ولا دار في بالي، رفعت رأسي، أغمضت عيني، أسلمت نفسي لخيالات وتهويمات ورؤًى صاخبة، ونشوانة، في فضاءاتٍ لا أتبيَّنها، وإن ألحَّت على تصوراتي بما يصعب مغالبته.

أعرف قسمات التكوين الجسدي للفتاة، أية فتاة، أتوق لملامسته، يصدني الخوف والقلق، فأعاني العجز.

تنبهت — ذات عصر — على صوت أمها يتناهى من أسفل: منار!

انتفضت، جرت ناحية الباب.

لم تعُد البنت — من يومها — تكلمني، تعبرني — إن التقينا على السلم — بنظراتها، كأنها لا تعرفني، انقطعَت عن زيارتي منذ نادت عليها أمها، لم يكن ما دعوتها إلى فعله يستحق المؤاخذة.

خشيت أن تكون منار قد روت لهم ما حدث، وأنهم أضافوا إليه.

لم تعُد حتى المصادفة وسيلةً للقائنا، وإن حدث، أسرعت منار في خطواتها، كأنها تلقَّت أمرًا بابتعادها.

لزمت — من يومها — الشقة، أتوجه إلى السنترال، وأعود، أنظر أمامي، لا أتلفت، أتدبر النتائج لو أن أحدًا من أسرتها رآني.

رويت لسعد ما حدث.

قال في تحير: أعرف أن هناك بنات بقين على العذرية ... لكنني لا أعرف هذا في الأولاد.

أردف كمن يكلم نفسه: العذرية اختراع ذكوري.

وحدجني بنظرته المتحيرة: لا أتصوَّر أنك بلا تجربةٍ جنسية.

داريت ارتباكي أمام الاستغراب في عينَي سعد، تمنيت لو أني احتفظت لنفسي بما جرى.

أطلق ضحكة قصيرة: ربما استطاعت البنت أن تحافظ على عذريتها.

٢

ثم وهو يمرِّر أصابعه على رأسه: أنت ... كيف تستطيع؟!

وفاجأني بالقول: لم تكلمني عن بنات؟

غالبت ارتباكي وأنا أعترف بخلو حياتي من التجارب العاطفية، لا تجربة من أي نوع، حتى القبلة أتوق لها في شفتي بنت، لكن الرغبة لا تلبث أن تفارقني دون أثر.

وهو يلكزني بقبضته في كتفي: لا تقصر استخدام ساقَيك على المشي.

ورمقني بنظرةٍ مرتابة: ما وظيفة الساقَين في رأيك؟

حاولت أن أتكلم، لكن شفتيَّ ظلَّتا ساكنتين، صامتتين، كأنهما تجمدتا.

– ألا تعرف الجنس؟!

هززت رأسي دون معنًى محدد، مئات الكلمات ألوكها في فمي، ولا أنطقها.

أردف بلهجةٍ مستهزئة: لن تعرف تجارب حقيقية ما لم يكن لديك شهادة خبرة!

أنصت إلى حكاياته عن البنات، لا أعقب، ولا أسأل، ولا أستوضح ما غمض. أظل صامتًا، وإن شرد بي الخيال في تصورات غائمة.

٣

ما الذاكرة؟

لماذا يستعيد الذهن صورًا دون أخرى؟

تجاهلت ما جرى، تناسيته، كأنه لم يكن، لكن اللحظة الوامضة أعادته: منار على الكنبة، ثنت ساقيها، قاربت ركبتيها من ذقنها، تدفس وجهها — بإلحاحي — في باطن الكنبة، هادئة، ساكنة، صامتة، تختار لحظة نهوضها: خلاص؟

أقول: خلاص!

لماذا تذكرت منار؟ لماذا ومضت صورتها في ذهني، وغابت صورة كوثر؟

فرضت علاقتي بمنار موقفًا ساكنًا، غابة كوثر السحرية امتلأت بالأشجار المتشابكة الأغصان والأوراق، صخب فيها انفلات الحواس والعناق والتأوهات والأنفاس اللاهثة.

أشرد في كوثر، تذكرتها فعلًا تاليًا لاسترخاء منار الهادئ المستكين، تدسُّ أنفها في الأرض، بينما النظرة المحدقة هي ما أكتفي به، حتى أدعوها إلى القيام.

رنوت إلى جسد البنت المستلقي على الكنبة، تمهلت نظراتي — بجرأة الثامنة عشرة — عند عنقها وأنفها وشفتيها، تشملني ارتجافة لملمس بشرتها.

كنت قد أدليت — لأول مرة — بصوتي في الانتخابات، أخذ الرجل بطاقة الاستفتاء، جرى بالقلم عليها، ودسها في الصندوق. غادرت مكان اللجنة وفي داخلي قرار ألَّا أعود ثانية إلى هذا المكان، أو ما يشبهه.

أشارت كوثر إلى ملابسي، فلم أنزعها. ظلَّت الملابس — عدا الحذاء الذي ألقيت به، وتركت الجورب — على جسدي.

أهملت مداعبتي لأجزاء من جسدها، تناولت يدها بين يدي، ضغطت عليها في ود، مسدت بشرتها، عركت — برفق — أذنها، تخللت شعرها بأصابعي، تهدل — في غير

انتظام — على كتفيها، وحول رقبتها، لامست خدها، أسلمتني قدميها، دلكتهما، فسرت ما حدث — بيني وبين نفسي — بغياب الفهم.

هل تدوم اللحظة؟ هل تأذن لي بتكرار ما حدث؟

اللمعة في عينيها حفزتني إلى تقبيلها، ثم غابت اللحظة التالية، هل تتواصل قبلاتنا، أو أحاول التسلل إلى مواضع أخرى في جسدها؟

تمنيت — في استغراق اللحظة — أن تستمر بلا انتهاء، لا صلة لها بصحو أو نوم أو تأمل أو قلق أو خوف، أستعيد جلستي على كرسي في نهاية حديقة المنشية، فوقي شجرة تفرش الظل، أمامي كشك للسجاير، يقصده المترددون على المحكمة الكلية، ألوذ بنفسي، أخلو إليها، أنعزل عن العالم، أشرد في الصمت والإنصات والفراغ والأطياف التي لا أتبين تفصيلاتها.

المتعة التي تبقى لحظة، يراها أوسكار وايلد أفضل من الحسرة التي تدوم إلى الأبد. لن ينقضي العمر في لحظة ممتدة، لحظات السعادة نختطفها — في الأغلب — من معاناة الحياة.

لماذا لا أختطف لحظات السعادة؟

غابت نظرة كنت أحبها في عينَي منار، ليست تحريضًا ولا مغازلة، تشدني إلى طمأنينة أستريح لها، وأحبها.

قمت من جلستي، رفعت عينًا متسائلة: هذا هو؟

أعدت القول: هذا هو.

– ألا تريد شيئًا آخر؟

– لا ... هذا كل ما أريد.

أهملت الاستغراب في ملامحها.

داخل صوتها غنج: عرفت أني سأكسب صديقًا جديدًا.

لم أكن أنا الذي دعوتها، اندفع سعد، يتقدمها إلى داخل الشقة: كوثر ... صديقة.

حدست أنها ابنة الرجل ذي الجلباب الأبيض والشبشب، والسيدة التي أسدلت على رأسها، ومعظم جسدها، عباءة سوداء، لم أعرف أين تقيم الأسرة، ولا إن كان لها إخوة آخرون، أراها — في وقفتي خلف النافذة — إلى جوار العربة الصندوق، على ناصية ميدان المسافرخانة، تكومت فوقها فاكهة الموسم: البرتقال واليوسفي والبلح في الشتاء، والتفاح والمشمش والخوخ والبرقوق والبطيخ، وأنواع أخرى كثيرة في الصيف، تقف، وتجلس،

٣

بجوار العربة، بمفردها، أو تترك أحد الأبوين، تنتقل بين أبواب البيوت والدكاكين، أفسر ابتسامتها الواسعة المصاحبة لاتجاه نظراتها ناحيتي، أنها للترغيب في شراء ما تبيعه.

اتجهت إليها بنظرةٍ متأملة.

أول مرة أتأملها.

بدت متغيرة الملامح عن رؤيتي لها من فوق، بشرتها السمراء أميل إلى الصفرة، عيناها السوداوان تحرضان على ما يسهل فَهْمه. شعرها الناعم يتطاير مع حركة رأسها السريعة.

كانت كوثر هي التي تتكلم، لكنني أنظر إلى منار، أتأمَّل استرخاءها في الصمت السادر، أُصغي إلى صوتها الجميل: خلاص! أتمنى أن تمتد اللحظات بلا انتهاء.

لم أكن رأيت جسد فتاة عاريًا، قبل أن تنزع كوثر ملابسها، وتواجهني. أخذتني المفاجأة، ودعوتها، لم أتبين ما حدث إلا بعد أن أغلقت الباب وراءها.

ضبطت نفسي أستعيدها، أتخيلها عارية، لم يكن جسدها، وإنما جسد منار، غاب القوام الصبي، والعينان الواسعتان، والأنف الدقيق، أحاول استعادة ما كان.

عرفت أنها لم تخطئ فهم نظرتي، ربما أفصحت عيناي بما حاولت أن أداريه، أدركت أنها فطنت إلى ما بنفسي، فتملكني الارتباك، لم أعُد أنا الذي يتكلم، بل الرغبة المشتعلة داخلي، قالت عيناها ما لم تنطقه الشفتان، دعوة ينبغي أن أستجيب لها، أغادر مكاني، أتجه ناحيتها، لن أنتظر حتى تتحرَّك.

المشاعر كانت تداخلني باللذة، وأنا ألمس ما تصل إليه أصابعي من جسدها: الشعر، خلف الأذن، الوجنة، تحت الكتف، الساق، بطن القدمَين.

فاجأتني بتصرفها، جذبت البلوزة من أسفل، أطل ثدياها صغيرين، منتصبين، يغريان بالملامسة.

تحسست أصابعها الطويلة ساقي، فكت أزرار البنطلون، انتفضت واقفًا.

هذا ما لا أريده.

زمت شفتيها داخل فمي، احتوت بهما شفتي، غرقت فيما يشبه الجنون، تحققت الرجفة، فهدأت نفسي.

خلفت في فمي، وأنا أقوم عنها، ما يشبه زفارة السمك.

استوت واقفة، وسوت فستانها القصير.

أمعنت النظر — بجانب عيني — في ملاءة السرير، تأملت — بإحساس المفاجأة — نظرتها المبتسمة، الساكنة.

بعد أن قامت إلى الحمام، عاودت تبين الأثر. أربكتني المفاجأة، وإن حاولت أن ألملم مشاعري.

أثارني — بيني وبين نفسي — أنها لم تظهر اهتمامًا.

تجرأت بالقول: متزوجة؟!

هزت رأسها دون أن تغادر البسمة الساكنة شفتَيها.

وهي تفتح باب الشقة: عن إذنك يا سي مازن.

في دهشة: تعرفين اسمي؟

– سي سعد رساني على كل شيء.

نقلت نظراتها بين النقود في يدها، وبيني: هل تريدني ثانية؟

وأنا أفتح الباب: سأناديك من النافذة.

شعرت أن شيئًا ما انكسر داخلي، وأني لا أستطيع إصلاحه. لم يشغلني في العلاقة سوى تأمُّل البنت الممددة، ما حدث مع كوثر خطأ لن أكرره، عمق من موقفي الرافض ما لفني من شعور التقزز عقب انتهاء اللحظة، الفرجة وحدها ما أتوق إليه، الجسد الهادئ، الساكن، يخضع لنظراتي المحدقة. لا تبدي البنت اعتراضًا، لا تناقشني، لا توجِّه أسئلة.

قفز السؤال وأنا أجاوز جامع علي تمراز: ماذا لو اتهمتني كوثر بأني أول من دخل حياتها؟

تملَّكني خوف لمجرد التفكير أنها ستروي ما حدث لمن لا أعرفه، يُنقل ما روته — بزيادات — إلى الجيران، تتسع الدائرة بما لا أتوقعه، تحاصرني النظرات الساخطة، والرافضة، ربما واجهني الأذى، أو ما يصعب تصوره.

توقفت بعفوية، تلفت، كأني أتوقع من يلاحقني.

نقلت لسعد مخاوفي.

تمازج في نظرته التأنيب والسخرية: لا بد من وجود مشكلةٍ حتى نبحث عن الحل.

وزفر في نفاد حيلة: كما أرى لا يوجد في ما قلته مشكلة، ولد وبنت وحدهما داخل شقة ... هل يؤمها للصلاة؟!

أذكر أني لم أكوِّن صداقات في مدرسة راتب باشا الابتدائية، ولا في مدرسة محمد علي الصناعية. لاحظ الطلبة حساسيتي، حاولوا النيل مني بعبارات ملمزة، وساخرة، اقتصرت صداقتي على سعد، أنا من قسم الكهرباء، وسعد من قسم الميكانيكا، أنست إليه لأنه يسكن في البيت المواجه، ويعاملني كصديق.

٣

بماذا قدمني لها؟

لم أكلمه — ولا أي أحد — عن التصورات التي ملأت نفسي، سكنتني، أنصت إلى حكايات علاقاته، بنات من الحجاري والسيالة ورأس التين، يسترسل في الكلام، لا يقطعه، عيناه لا تطرفان، وابتسامته المستخفة ثابتة على شفتَيه، وإن بدا خده الأيمن دائم الارتجاف بحركةٍ عصبية، يثق أنه إذا أطال التحديق في عينَي فتاة، فإنها تقابله بنظرة استجابة، يعجز عن التحكم في مشاعره لرؤية فتاة جميلة، تتلفَّت نظراته حتى لا ينتبه أحدٌ إلى استحواذها عليه، عندما تتملكه الرغبة، يتعمَّد خفوت الصوت، ويستعير لهجة رقيقة، أُرجع إلى خلافات أبوَيه صعوبة التزامه بمسئوليات أسرته، يكتفي بالعلاقات الطياري. يفضل العيش بطريقته الخاصة، تستغرقه اللحظة التي يعيش فيها، لا شأن له بتوقعات، ولا تشغله نهايات الأشياء، ما دام كل شيء قائمًا، فليس ثمة ما يدعو إلى الخوف أو القلق، لا يعير اهتمامًا لما يقوله الآخرون، ولا تشغله الآراء التي تدينه، لا يحزن، ولا يغضب، ولا يلجأ إلى رد الفعل، لا يعاني مشاعر سلبية من أي نوع، كأنه يتقبل الإساءات، والكلمات الموبخة، وإن حملت كلماته تورية هادئة، يجيد الاتجاه بالحديث إلى المعنى الذي يريده، يحرص أن يعلو بصوته على الآخرين، يسيطر — بصوته الأجش المرتفع — على تلاغط الأصوات، إن احتد النقاش، فتش في ذهنه عن نكتة، أو دعابة، يخفف بها التوتر الذي ران على الجلسة، يثق في نفسه إلى حد الجرأة، وربما التعالي، يضايقني تلبُّسه روحَ المعابثة السخيفة، تلذُّذه بإلقاء الأسئلة القاسية، كَشْفه — بلا سبب — عما ينبغي ستره.

ساءني أنه شرد عن كلماتي، وواصل مَضْغ ما لم أتبيَّنه: ما هذا؟

اكتفى بالقول: أجرب.

اجتذبتني شخصيته، وإن لم أجد في تصرفاته الغريبة ما يدفعني إلى المحاكاة، تكررت تصرفاته، أعجز عن تقبلها، أو فَهْمها، أكتفي بالصمت لانتقاده إخفاقي في التعامل مع الآخرين، وعجزي عن كَسْب ودهم.

غمرتني راحة لأني نصحته أن يرجع عما اعتزمه لبنت من السيالة، هجرته بعد أن تحابَّا ما يقرب من السنة، اشترى زجاجة ماء نار ليقذفها بها في ظلمة حارة الشاروني، اعتاد تذكيري: نصيحتك أنقذتني من السجن!

يعاودني الإحساس بالراحة.

كنا نترافق وقت ما قبل الغروب إلى طريق الكورنيش، يملؤنا حب الفرجة لكل ما حولنا: الجالسين على المقاعد والسواتر الحجرية، صيادي السنارة والطراحة والجرافة، باعة

الفريسكا والفستق والفشار والفول السوداني والترمس وكيزان الذرة، هسيس النخيل في امتداد الطريق، الطائرات الورقية الملونة.

يكرر أمنية لا تفارق خياله: يركب البحر إلى الموانى البعيدة، يتزوج من امرأة في كل ميناء ينزل إليه، لا يطلقها، لكنه يترك المدينة في موعد رحيل الباخرة، ينسى — أو يتناسى — ما حدث، وإن تزوج في أول مدينة ترسو فيها الرحلة التالية.

آخر فسحتنا تمثال سعد زغلول، نصعد إلى القاعدة الجرانيتية، نتأمل ما حولنا: البحر، ميدان محطة الرمل، زحام محطة الأوتوبيس، بوابة فندق سيسل الباعثة للتأمل، الرؤية الرمادية داخل التريانون، البناية المنفردة للغرفة التجارية، إن هطلت الأمطار، اتقيناها بالوقوف تحت مظلات المقاهي والكازينوهات في الناحية المقابلة للبحر، إن سخن الجو، اخترنا الوسيلة نفسها.

عرفت أنه لا يحب القراءة، ألاحظ سحبه الكتب الموضوعة على المكتب الخشبي الصغير، جوار السرير، يكتفي بنظرة غير متفحصة، ثم يعيد الكتاب.

ثاني يوم، فتحت الباب لصوت الجرس.

طالعتني كوثر.

وضعت في عيني نظرة محدقة، كأني أسألها عن سر عودتها، تجاهلت النظرة، ومضت إلى الداخل.

اطمأننت — بنظرة خاطفة — إلى إغلاق الشقة الملاصقة.

لم تفارقني كوثر منذ أغلقت الباب وراءها، حل الخوف في داخلي، لو أنها تنسب لي ما لا أعرفه، ما يورطني.

فارقتني الرغبة، أزمعت ألَّا يتكرر ما جرى بيني وبينها.

لكنها جاءت، ودعوتها إلى الدخول.

يلازمني الإحساس بالفراغ، كأن شيئًا ينقصني، لم يشغلني في العلاقة سوى تأمل البنت المستلقية، أو التحديق فيها، أعانق كوثر، لكن منار تحل بدلًا منها، أستعيد اللحظات الوامضة، يتداخل الفعل والملامح والكلمات، حتى تحتل الذاكرة تمامًا.

ألوذ بسريري عقب كل علاقة، ألملم أجزاء جسدي المبعثرة. وإن قاومت رغبة طاغية في أن أعاود ما كنت أفعله، ألامس ما تصل إليه يدي من جسدها، كأني أريد تذوقه.

٤

البيت في شارع جودة برأس التين، والهيئة في ميدان المنشية، أفر من زحمة الأوتوبيسات والعرق والملاحظات والشتائم، أخترق صفر باشا إلى نهايته، ومنه إلى شارع الميدان في تقاطعه مع وكالة الليمون، أقطع المسافة المتبقية سيرًا، حتى يطالعني ميدان التحرير.

ألاحظ في نفسي ميلًا لعد كل ما أصادفه، ما لا أعرف طبيعته في داخلي يدفعني إلى العد: قطع البازلت في شارع المسافرخانة، بلاطات رصيف الكورنيش، طوابق البنايات، النوافذ المفتوحة، والمغلقة، درجات سلم البيت والسنترال، اللمبات المضيئة في النداء الآلي، القوارب الراسية على يسار المينا الشرقية، أشجار النخيل المطلَّة على البحر.

أجاوز شوارع وميادين ودكاكين ومقاهي، ألفت رؤيتها، ربما ألف من أعبرهم فيها رؤيتي، تدفعني الألفة — أحيانًا — إلى إيماءة بالتحية.

قالت أمي إن أبي اختار لي اسم سبارتاكوس عن بطل الفيلم الذي يتذكره منذ شاهده في السينما، حذرته أمي من غموض الاسم، وصعوبة نطقه. اختارت أمي اسم أنور السادات، هو أنسب الأسماء في أيام حرب أكتوبر، وجد أبي أن تسمية أنور تنطبق على الممثل أنور وجدي، وتسمية السادات قديمة. اقترحت اسم حسني؛ لأنه خليفة السادات، لكن أبي اختار اسم بائع سوري من الباقين — عقب الانفصال — في سوق سوريا.

تضايقت — بيني وبين نفسي — حين قالت أمي لجارة الطابق الثاني إني ظللت عاجزًا عن الاستحمام بنفسي حتى جاوزت العاشرة.

لم تقتصر قراءاتي على الكتب الدراسية، قرأت في كتب استعرتها من مكتبة فارس بشارع رأس التين، أو في المكتبات القريبة من السنترال، خمسة قروش لقراءة الكتاب، بصرف النظر عن قلة صفحاته أو زيادته. القراءة التي تضيف إلى ما أعرفه، أقرأ في كل شيء، وإن ملت إلى قراءة الروايات والمجموعات القصصية ودواوين الشعر، حاولت —

بالقراءة — أن أعوض ما فاتني من التعليم الجامعي، يداخلني اعتزاز لأني أعرف ما يغيب عن زملائي في السنترال، أكتفي بأن أعرف دون أن أحاول المشاركة فيما يدور أمامي من مناقشات، تؤنسني وحدتي، لا أجد في نفسي ميلًا لتكوين صداقات، أو علاقات. سعد كأنه حالة استثنائية في حياتي، تؤنسني وحدتي، لا أجد في نفسي ميلًا لتكوين صداقات، أو علاقات، سعد — في حياتي — كأنه حالة استثنائية.

عانيت الملل، عبرت ميدان المنشية إلى العطارين، أشتري من مكتباتها ما أعود إليه حتى أنهي قراءته.

أرفض العنف، أكتم انفعالاتي، أحاذر، لا أقع في أي خطأ يضعني في موقف التوبيخ، أو المساءلة، لا يدفعني الغضب إلى مواقف تؤذيني تأثيراتها، أخشى المجازفة، أرفضها، كانت نصيحة أبي أن أمشي جنب الحيط، أبتعد عن كل ما يأتي بالمتاعب، أو يؤذيني، تخالفه أمي في إلحاحها عليَّ أن آخذ حقي بيدي، ربما نصيحة أبي هي التي أتاحت للشعور الطاغي أن يستقر في داخلي.

تملكني الخذلان، فلم أدافع عن نفسي، أستنكر ما حاولت التغلُّب عليه مراتٍ كثيرة، لكنه يظل في داخلي، يقيد كلماتي، وما أريد قوله.

أتخيل أصدقاء أحاورهم، آخذ منهم، وأعطي لهم، نتفق ونختلف، يتكلم فأقاطعه، أستدعي الكثير من الصور والذكريات والرؤى المقنعة، أعبِّر — بوضوح — عن المعنى الذي أريده، هذا هو ما سأقوله تمامًا، إن حدث — كما قدرت — موقف مماثل. الأفكار تواتيني — بسهولة — عندما أكون بمفردي، أستدعي الكلمات، أرتبها، أحذف، أضيف، حتى أصل إلى المعنى الذي أريده، الكثير من الملاحظات والدعابات والنكات والقفشات والردود على أسئلة أتوقعها، يغيب ما أعددته أمام النظرات المستحثة، والأسئلة، والكلمات المقاطعة، أذوب تمامًا، أتلاشى، في حضور زملاء السنترال، أختار الصمت ملاذًا مما أعانيه.

عندما صحوت، عرفت أني عشت حلمًا، ولعله كابوس، تلاشى باستيقاظي تمامًا. عاودني الحلم وأنا على قهوة رأس التين، لم أعرف إن كان من رأيتهم هم الناس الذين رأيتهم في الحلم، أو يشبهونهم، لكن التخويف الذي حوصرت به لم يتبدل، وإن نفضت رأسي، فلا أصرخ كما فعلت في الحلم.

قال لي المهندس طنطاوي: أنت تفعل ما أريده، لا ما تريده أنت.

يبدو الانزعاج في عينيه لأي خطأ أثناء العمل، كأن الخطأ يصعب إصلاحه، يحشر قراءاته في كلامه، ربما دون أن يحتملها السياق، يضيف إليها مفردات، ومصطلحات

الإنجليزية، لا يلبث أن يترجمها. توقعت أن الحقيبة التي يضعها على الطاولة، بها مسجل، المسجل يلتقط حتى الكلمات الهامسة، يحللون المعاني الظاهرة، والخفية، ونبرة الصوت، يجدون في ذلك كله دليل إدانتي، لا حاجة بهم إلى انتزاع اعترافات بما يرهقني، وقد يرهقهم.

أشعر أنه قد نبتت لي مخالب، أنشبها في عنقه.

كيف يحتمل كل هذا الغل في نفسه؟

تعددت مذكرات لفت النظر، والاتهام بالتقصير، والخصم من المرتب، والحرمان من الحوافز، ورفض البدلات والإجازات.

لم أبدل ابتسامتي في وجهه، لا يعرف أني أبتسم تجنبًا لأذاه.

إن وجدتني في جماعة، يتملكني الإحساس بالغربة، تؤلمني النظرات التي تحيط بي من كل جانب، نظرات متسائلة، ومستريبة، ومتشككة، أعاني الريبة والتوقع والخوف من المجهول، كل حركةٍ تدعوني إلى التلفت، الأشياء بلا معنًى، والنظرات من حولي ساكنة بالغموض، أتلفت حولي، كأني محاط بأعداء أجادوا التخفي، أشعر أني أواجه تهمًا لم أرتكبها، حتى وسوسات النخيل في طريق الكورنيش، أتصورها — أحيانًا — في غير صوتها، ضبطت نفسي أدقق النظر في ما ألقى ظله خلف شجرة، عدت إلى نفسي برؤية الجوالات المكومة.

لا أعرف إلى متى سأتحمل هذه التصرفات؟

لماذا لا يبتعدون عن طريقي؟

رأيت كوثر على رصيف الكورنيش، نظراتها المتوترة كأنها تبحث عن شيء، فستانها الذي يقصر إلى ما فوق الركبتين، يختلف عن فستان البيت الذي لم تكن تبدله، حدست أنها تترقب سيارة، تبطئ سيرها، تتوقف، ينفتح لها الباب، فتدخل. أسرعت في خطواتي، اتجهت — حتى لا تراني — إلى الناحية المقابلة.

قال سعد إن والد كوثر تزوَّج على أمها بائعة خضار في شارع صفر باشا، شحمية البدن، لها شعر طويل ينسدل إلى ظهرها، لحظة الجنس عنده ترتبط بالشعر الناعم الطويل، يمسده بيديه وهو يحتضن المرأة.

كان صوتها يجتذبني — عبر التليفون — ببراءته النقية، قدرت عمرها بين الخامسة والعشرين والثلاثين، تقرأ أرقام النداء الآلي المعطلة كي أراجعها، أتبين إن كان العطل طارئًا، أم يحتاج إلى إبلاغ مهندس الوردية؟

عرفت صوتها. لم أبادر — كعادتي — بأي شيء، أوازي الخطوة التي تقطعها، لا أحاول التقدم، يواجهني ما لم أعد له نفسي، ولا أتصوره، لم أواجه ما يحرجني في علاقاتي بزميلات العمل.

فاجأتني البسمة الصافية — ذات عصر — وأنا أطمئن إلى سلامة السويتشات التي أضاءت لمباتها الصغيرة: مازن.

عرفت أنها هي، هززت رأسي، وإن عجزت عن نطق اسمها.

دفعت بالورقة الصغيرة: هذا عطل يخص رئيس تليفونات الإسكندرية.

أردفت وهي تتابع بحثي عن الرقم المعطل: صوتك يعطي سنًّا أكبر.

لم يكن أحدنا يلقي التحية على الآخر، ولا يستوقفه بالسؤال، أو الكلام، يمضي كلٌّ منا في طريقه، لا يتلفت، عندما بدأت نظرة كلٍّ منا تتجه إلى الآخر، أدركت أنها تشغلني.

المصادفة — وحدها — هي التي رتبت لقاءنا خارج مبنى السنترال. بدت مرتبكةً وهي تحمل أكياس طعام، اشترتها من سوق راتب، أخذتُ الأكياس دون أن يخطر في بالي أين تذهب بها.

قالت في لهجة معتذرة: مشواري بعيد.

لم أرد، ولا أومأت إلى أني استمعت لما قالته. واصلت السير جوارها، أنظر إلى ما حولي بعين شاردة، لا أدقق في التفاصيل، ولا أحاول إيداعها الذاكرة.

تنبَّهت إلى أني أحاول سد فراغات الصمت بأسئلة شاغلها الكلام وحده.

– أنادي تاكسي؟

حدجتني بنظرةٍ من طرف عينها: محطة الترام قريبة ... البيت في كرموز.

وجدت صعوبة في الوقوف إلى جوارها على المحطة، تدافع الزحام ابتلع كلماتنا، ومحاولاتنا للاقتراب.

في انحناءة ميدان المنشية، راجعت نفسي: هل كنت موفقًا؟ هل أحسنت التصرف لما رافقتها إلى محطة الترام؟ هل عانيت التلعثم والارتباك والرغبة في إظهار التفوق، ومشاعر أخرى يمليها الانفعال؟

لاحظت أني لا أمتلك تعبيرات عاطفية، أقولها في مواقف البوح، تمنيت وأنا أجتر — في مقعدي بالأوتوبيس — ما حدث، لو أني غنيت، صفرت، قفزت إلى أعلى.

رافقني طيف فردوس في عودتي إلى البيت، شغلني عن الطريق — عبر طريق الكورنيش — إلى شارع جودة، كلمتها، واستمعت إليها، ظلت عيناها معي، أطالعهما

في كل مكان، تبدو في حروف الجريدة، تملأ صورتها الصفحة. أتخيل سيرنا على طريق الكورنيش، تجاورنا في مقاعد البلكون بسينما فريال، تناولنا ساندوتشات فول وفلافل من محمد أحمد، أسند رأسها على صدري، وأسند ظهري على شجرةٍ في حديقة الشلالات، جلوسها إلى جواري — بدلًا من سعد — على القاعدة الجرانيتية لتمثال سعد زغلول.

تعددت لقاءاتنا.

أدركت المعنى من تلميحاتها، لو أني أغازلها، أهمس بكلمات ترضيها. ظللت مترددًا، حتى ابتعدت. لم يكن ثمة ما أستطيع أن أقوله، فصمت.

لاحت في عينَيها نظرة قلق: أنت دائم التلفت؟

وأنا أعاني الارتباك: أخشى أن يرانا أحد.

أطلقت ضحكة هادئة: تغير الزمن، لم يعُد الناس ينظرون إلى خروج البنت مع شاب نفس النظرة القديمة.

غالبت ارتباكًا في مجاراة ميلها إلى التحرر. لم أنطق كلمات كنت أعددتها في فمي، وحزنت لأني تكلمت حين كان يلزم الصمت.

لامس كفي ظهر يدها، فارتجفت.

شدت — بتلقائية — طرف فستانها، وأسدلته على ساقَيها.

أدمنت النظر إلى كعب قدميها في الحذاء المغطى، خمنت الاستدارة الوردية، شرد خيالي بتحسس فخذها، حتى تستقر راحتي على ركبتها، تسبل عينيها، وتستسلم في استكانة. تتسلل نظراتي إلى ما تحت الجونلة، الهاجس، الحلم، الذي كان يسيطر على تفكيري. تجتاحني رغبة كالجنون في لمس بشرتها، وشم عطر جسدها.

خلعت حذاءها، وسارت — حافية — في زبد الأمواج.

فكرت في أن أخلع حذائي، وأرفع ثنية البنطلون، وأسير — مثلها — على الرمال المبتلة، لكن الارتباك قذف بي في سمواتٍ محملةٍ بالترقُّب والجنون.

شعرت أننا أقرب ما يكون كلٌّ منا إلى صاحبه، لكن الجدار ظل قائمًا، أحتفظ — في نفسي — بكلام كثير، أرجئ ما أنوي قوله إلى موعد لاحق، ثم أرجئه إلى موعد آخر، ظل البوح — بتوالي الأيام — أشبه بالحلم الذي احتواه النوم، التحفظ في تصرفاتها صنع جدارًا غير مرئيٍّ بينها وبيني، حرصت في كلماتي، فلا أضايقها، ألوك الكلمات، ثم أبتلعها، يبدو الصمت شرنقةً ألوذ بها.

مددت يدي، أتظاهر بأني أريد أن أزيح ما علق بقدمها الحافية من فوق الرمال، تغافلت ما داخلني من نشوة لملمس قدمها الناعمة، الدافئة.

نفضت رأسي من خاطر وامض، أن أنحني على موضع قدميها على الرمال، فأقبله.

أتوق للعلاقة بين الولد والبنت، لكنني أخشى التجاهل أو الرفض، إيماءة الضيق تعيد خطواتي إلى الوراء، يأخذني التردد، فلا أجد الشجاعة التي أعبر بها عن مشاعري.

ما الذي يخجلني من هذا الشعور؟ إلى متى أعاني هذه الرغبة؟ لماذا أخجل من البوح؟

لا أذكر متى بدأت تعاني الملل من علاقتنا.

كنت أسير إلى جوارها، لا أجد ما أقوله، وإن داخلتني لذة لالتصاق بلوزتها بقميصي، تمنيت أن تظل إلى جواري، لا تفارقني.

تملكني ارتباك حين أشارت إلى تاكسي: أستأذنك لأستعمل هذا الاختراع!

أحسست أني لم أعُد أمتلك إرادة، أية إرادة، لفَّني سكون، وصمت، وعجز عن التصرف.

لماذا غلبني التردد؟ وهل اتخذت — في تلك اللحظة — قرارها بأن تبتعد؟ هل أصدرت حكمها، وانتهى الأمر؟

لم أتصور أن مشاعرها تجاهي ستفتر بهذه السرعة، وأنها — إن التقتني — ستعبرني بنظراتها. استعدت جلستنا تحت شجرةٍ في نهاية حدائق الشلالات، مالت بوجهها ناحيتي، نفضت فكرة تقبيلها، خشية أن أكون قد أسأت الفهم، تمنيت أن تتكرَّر مرافقتي لها إلى البيت في كرموز، أحمل عنها ما تشتريه، لو أني وضعت يدي على كتفها، وسرنا متباطئين، نتكلم فيما يخطر لنا، مجرد أن نسير معًا، نتبادل الملاحظات عن مشاهداتنا لما في الشرفات والنوافذ والدكاكين والقهاوي وعربات الترام والمارة.

داخلني شعور أقرب إلى الموت، حين استدارت، وواجهتني: إذا أحببت شخصًا ... فبالتأكيد لن يكون أنت!

اتسعت المسافة بيني وبينها. حاولت أن أستمع إليها، أراها، أتصل بها على أي نحو، تكرر إغلاق سماعة التليفون، أو تناهى صوت آخر.

أراجع نفسي، أستعيد تفصيلات دقيقة، ربما لم أحسن التصرف، أو قلت ما يضايقها.

إذا لم أكن فاتحتها في الزواج، فإن كلماتي وتصرفاتي عبَّرت عن المعنى، الزواج هو نهاية صداقتنا، وهو ما أريده.

هل أبطأت في تقديم العرض؟

هل تعجلت فردوس حدوثه؟

تبادلنا النظرات، وأنا أتجه نحو ساعة الميقات، وهي تبتعد، وتمضي ناحية المصعد، أدركت أنها تتجنب لقائي، خشيت أن علاقتنا انتهت.

ظللت واقفًا، حتى غادرت المصعد.

لاحظت نظراتي في اتجاهها، أشاحت بوجهها بعيدًا.

لامست ساعدها، أحاول أن أقول شيئًا.

نترت يدي في سخط: لا تعترض طريقي.

آلمتني نظرة عينيها، لا تبين عن معنًى محدد، وإن وشت بسخرية، أو احتقار، هذا هو المعنى الذي تصورته.

علا صوتها إلى حد اجتذاب انتباه الموظفين، كل من امتلأت بهم الصالة الواسعة، التفتوا ناحيتنا بأعين يمتزج فيها التساؤل والقلق والفضول.

أخفضت رأسي، وقلت فيما يشبه الهمس: هل أخطأت؟

رمتني بنظرة حادة: أنت تلبي ما لم أطلبه!

أمسكت بساعدها، أحاول أن أستبقيها، لا أفقدها، لكنها تملصت من قبضتي، وواصلت السير.

صارت فتاة أخرى غير التي أعرفها.

شعرت أن الأرض تميد بي، وأني أوشك أن أسقط مغشيًّا عليَّ، غابت المرئيات والأصوات، لم أعُد أرى أو أسمع شيئًا، تساندت — بعفوية — على الجدار، حاولت التماسك كي لا أقع.

تمنيت أن أموت.

تكررت رؤيتي لها — في الأيام التالية — أمام الساعة الميقاتية، أو أمام المصعد. حرصت على الوقوف بعيدًا حتى تزايل مكانها.

ناوشني سؤال، والقطار يبطئ من سرعته قبل محطة القاهرة: هل سأظل وحيدًا بقية عمري؟

حركة الركاب ابتلعت السؤال في تَهيُّئِهم للنزول. جاريتهم في سحب الحقيبتين من أعلى العربة، واتجهت ناحية الباب.

الشقة من صالة ضيقة، تتصل بحجرتين متجاورتين، المطبخ والحمام إلى يسار المدخل، في زاوية المطبخ باب يفضي إلى المنور، يطلُّ على بناية متهدمة.

صحبني قناوي البواب إلى عين شمس، عدنا بأثاثٍ وأدواتٍ منزلية، تلبي احتياجاتي.

رحلت عن الإسكندرية، لكنني لم أفارقها.

لا أتصور الإسكندرية بدون البحر يحيط بها، تمضي شوارعها إليه، تعيش على المهن المتصلة به، تمارس حياتها في تميز أجوائه، للبحر في الليل رائحة تختلف عن رائحة النهار، هو اختلاف يصعب تمييزه، لكنه هناك، أنصت إلى صوت الليل، صمت سادر، يعمقه ارتطام الموج في صخور الشاطئ، ترامي أغنية من موضع قريب. نداء، نحنحة، هدير محرك سيارة، صياح طائر ليلي، أهازيج ما قبل صلاة الفجر. أعيش النظر إلى أفق البحر، ومرسى القوارب، والبلانسات، والساحل الممتد، والشمس، وتلاحُق الأمواج، وصيحات النوارس، والصخور المعشوشبة، وورش القزق، وغازلي الشباك، وصيادي السنارة والطراحة، وشروات السمك، وحلقات الذكر، والجلوات، والموالد، وترامي الأذان من أبو العباس، وأهازيج السحر، والطائرات الورقية، وصرير عجلات الترام في انحناءة الميدان، حتى الشتاء في الإسكندرية له رائحة أخرى، ملامح مختلفة، الأمطار القليلة على القاهرة تنقلني إلى الإسكندرية: أمطارها المصاحبة للنوات: يا مطرة رخي رخي … على قرعة بنت أختي، أحتمي بالطوابق الأولى في شارع فرنسا وميدان المنشية والشوارع الجانبية.

أسير — من حول البيت — فيما يشبه الدوائر، أتبين أني عدت إلى شارع سرتُ فيه من قبل، أعرفه من واجهة دكان، بواب بادلني السلام، كشك سجاير على ناصية الطريق، أتلفت حتى لا أتوه، ثم أمضي في الاتجاه الذي أتصوره صحيحًا.

حدست أني خلفت ورائي كل ما ينغص حياتي، لكن الإسكندرية ظلت داخلي. عدت إليها في زيارات دافعها الحنين، أعرف المدينة من رائحتها، ليس الملح ولا اليود، أو الطحالب، ولا أية رائحة قد تسم المدينة، لكنها ذلك كله، وتختلف عن ذلك كله، مزيج من الروائح يصنع رائحة خاصة، أميزها عند اقترابي من المدينة، لا ألتفت إلى ما أطمئن به لاقترابي من بحري.

أجد في العلاقة بين الزيتون ومصر الجديدة ما يستعيد الحياة في أحياء الإسكندرية الشعبية وأحياء الرمل، اكتفيت بتصور الحياة في الزيتون، لا يختلفون عن ناس شارع جودة، وشوارع بحري. أقطع خطوات إلى اليمين، ثم أميل إلى الشارع العريض المؤدي إلى مصر الجديدة، جسر بين عالمين.

تركت أثاث شقة الإسكندرية، في بالي أني سأعود إليها، فلا أتركها.

لن تظل التصرفات السخيفة والاتهامات والمطاردات في حياتي إلى ما لا نهاية، حرصت أن أدفع إيجار الشقة قبل موعده، ربما دفعت إيجار أربعة أشهر، أو خمسة، دفعة واحدة.

٤

مات أبي بعد حصولي على شهادة محمد علي الصناعية، رحلت أمي في السنة الأولى لعملي — بسعي منها — في النداء الآلي، صرت بمفردي داخل الشقة، يتناهى صدى صوت أمي، أو أبي، أتلفت ناحية الصدى.

لم أعد أتردد على بيوت أقاربي في الإسكندرية، عدا زيارتين متباعدتين لعمتي تهاني في العطارين، وخالي عبد المجيد في السكة الجديدة، أملاهما تزايد إحساسي بالوحدة، هما القريبان الوحيدان اللذان أخالطهما من عائلة أبي أو أمي.

قبل أن أتهيأ للسفر، حملت حقيبة ممتلئة بالكتب إلى العطارين. تقاضيت خمسين جنيهًا — مقابلًا لها — من مكتبة إخوان الصفا وخلان الوفا، كنت قد قرأت الكتب، فلم يستوقفني المبلغ، وإن احتجت إليه في أول أيامي بالقاهرة.

العمل هو نفسه، ما أفعله في سنترال النداء الآلي، هو ما أفعله في سنترال جسر السويس، تلقي الشكاوى، الاطمئنان إلى تواصل «الباور»، ومراقبة الخطوط، والأعطال، وتغيير الأسلاك المقطوعة، والمهترئة.

حين طالبني المهندس عاطف غيث أن أعالج عطلًا خارج السنترال، هممت أن أكلمه عن طبيعة عملي، لكنني وافقت. في بالي، ألَّا تظهر عداوات تضايقني، لا تتكرر مشكلات الإسكندرية، أعرف أن ما سأفعله كان ينبغي — من سنوات — أن يؤديه غيري، لكنني قدمت للعمل، وليس لإثارة المعارك، أفتح صفحة جديدة، أبدأ من أول السطر.

اكتشفت في السنترال عالمًا مختلفًا عن السنوات التي أمضيتها في سنترال المنشية، عالمًا أهدأ، يغيب فيه التردد والاحتراز، لا ألتفت ورائي، أصل قبل الموعد، أنتظر قدوم المهندس عاطف غيث، أعطي انتباهي حين يلقي الملاحظة، أو السؤال، يومئ إلى زملاء الوردية، يدعوهم للكلام بما يرون.

جذبتني آراء المهندس عاطف إلى المكان، غاب ما كنت أتوقعه من إحساس الغربة، حتى ميلي إلى كتم مشاعري، تخليت عنه في طرح الأسئلة التي تطلب فهمًا، أو إيضاحًا.

أستمع إلى المناقشات، الآراء المؤيدة، والرافضة، والكلمات ذات المعنى، أو التي يغيب معناها، أنتبه إلى الكلمات مهما اتسمت بالعفوية، أي تصرف، مهما يكن صغيرًا، ربما تظاهرت بالإصغاء، أرسم التعبيرات التي تعني المتابعة والفهم، أريد أن أقول رأيي، أهم بالقول، تتقافز الكلمات في فمي، لكنني أخشى الآراء الغاضبة، أو التسخيف، فأسكت، يملؤني ما يشبه الشعور بالنقص، أو أني لا أجيد التعبير عن رأيي، الخيوط التي تصلني بالآخرين متقصفة، تعاني التطاير.

ربما تهيأت لإبداء رأي، لكنني أكتم ما أنوي قوله، أخشى عدم التنبه، أو التسخيف.

يفاجئني السؤال: لماذا لا تشارك في الكلام؟

ألوذ بقاع الحيرة والارتباك.

أرتب الكلمات التي سأقولها، والأسئلة التي ستواجه أسئلتي، والآراء المؤيدة والمعارضة، وما ينبغي أن أقوله في ذلك كله.

الصمت هو الاختيار الأنسب في اختلاف الآراء، ما أطمئن إليه قد يجد رفضًا من شخص أريد صداقته، يربكني أن يوجه لي سؤال يصعب الرد عليه. ربما شاركت برأي، لكنني بعيد عن الأحزاب والتنظيمات السياسية، لا أعرف كيف تدار، ولا شأن لي بخلافاتها.

كانوا أربعة: المهندس عاطف غيث بقامته الضئيلة، وميله إلى الحركة، وكلماته السريعة، واللدغة التي تحيل الراء غينًا. يرى أن الانضباط يجعل كل شيء كما ينبغي. الحاج السيد البدوي صالح اطمأن إلى التسمية منذ أدى فريضة الحج، ناديته: يا أستاذ، رسم على شفتيه ابتسامة: قل لي يا حاج ... أبرك!

يبدو أصغر بكثير من سنواته الخمسين، لأنه كان يكثر من الأسئلة، فقد أزمعت تجنبه. فيكتور المطيعي في حوالي الخامسة والأربعين، لكنني علمت بقرب إحالته إلى المعاش، زادت إجازاته، ومال إلى الصمت، وشارك في العمل بما يشبه التصوير البطيء. لم أعرف المسمَّى الوظيفي لثروت الزيات، في أوائل العقد الرابع، يدله المهندس عاطف، أو الحاج السيد البدوي على ما ينبغي فكه، أو قطعه، ويراقبان أداءه حتى ينتهي.

نجلس — في أوقات الفراغ — إلى جانب النافذة المطلة على جسر السويس، تختفي الفوارق تمامًا، تختلط الأسئلة والأجوبة والملاحظات، تعكس كلمات المهندس غيث وجهات نظر تستلفت اهتمامنا. تتكرر فيها مفردات: الديكتاتورية، الفساد، حبيب العادلي، فتحي سرور، صفوت الشريف، زكريا عزمي، كمال الشاذلي، جمال مبارك، أحمد عز، جرائم التعذيب، غسيل الأموال، التزوير، البطالة، العشوائيات، ارتفاع الأسعار، تدهور التعليم والرعاية الصحية، بيع أراضي الدولة، خصخصة المؤسسات الكبرى، توريد الغاز الطبيعي لإسرائيل.

– نحن نملك من الموارد ما لا تملكه دولة أخرى.

وعد بأصابعه: القوة البشرية ... قناة السويس ... صادرات الزراعة والصناعة ... البترول والغاز الطبيعي ... تحويلات المصريين في الخارج ... السياحة ...

رسم فيكتور المطيعي على شفتيه ابتسامة واسعة؛ ليشجعه على مواصلة الكلام.

٤

– التضخم يعاني تأثيراته الفقراء، أما رجال الأعمال والتجار فيعوضون التأثيرات برفع أسعار السلع والخدمات.

أردف لنظراتنا المتسائلة: نحن نشهد مشهدًا ثابتًا من سنوات طويلة ... الرئيس وأسرته والحزب الحاكم.

ولوى شفته السفلى في امتعاض: مضى على حكم مبارك ثلاثون سنة ... إن كانت هذه المدة في زواج، فسيصاب أحد الزوجَين أو الاثنان بالملل!

وشت نبرة المطيعي بالضيق: الشعوب تثور على حكامها لأسباب أضعف من التي تدعو شعبنا إلى الثورة.

قال ثروت الزيات: هذا نظام فقد شرعيته من أول مرة زور فيها الانتخابات.

ثم في نبرةٍ متصعبة: نحن — في الحقيقة — لا نستحق هذا البلد!

قال الحاج فوزي النمر: لو أن أحداث سنة ١٩٥١ استمرَّت، ربما لم تكن تحتاج إلى ثورة يوليو.

أردف في لهجة تأكيد: كان الشعب هو الذي سيعلن البيان رقم واحد.

قال المهندس عاطف غيث: لا أحد من كل هؤلاء الساسة يخاف على مصر ... خوفهم على استثماراتهم.

وهز قبضة يده: مصر الآن أرملة يتزاحم الجميع على خطب ودها.

بحلقت: لماذا أرملة؟

– رحل من كانت تتزوجه.

رفع ثروت الزيات حاجبيه بالدهشة: أحببت عبد الناصر إلى هذا الحد؟!

قال عاطف غيث: كان هذا هو الحال ... وهذا ما نحن فيه.

قال المطيعي: صحيح، قيمة أي بلد في نخبته المثقفة، هي التي تصنع تقدُّمه.

أردف بلهجة تأكيد: للأسف، نخبنا المثقفة دينها الفساد!

قال فوزي النمر: ربما لأننا نرفع الشعارات ولا ننفذها ... نفعل عكس ما تدعو إليه.

قال السيد البدوي: سعد زغلول قال: ما فيش فايدة.

قال المهندس عاطف: سعد تكلَّم عن شدة المرض وليس عن البلد.

وجال بنظراته حوله، كأنه يطلب تأييدنا لكلامه: لو أن الأوضاع استمرت على ما هي عليه، فلن يكون تسونامي البشر مفاجأة!

قال فوزي النمر: إذا واصلنا التنفس فإن التغيير ممكن.

في نبرة متعالمة، قال السيد البدوي ونحن نتهيأ للانصراف: أنت تفضل التقية ... تتظاهر بالموافقة، وتضمر الرفض.

رمقته بنظرة رافضة: هذا شأن الشيعة.

وهو يطيل التحديق في وجهي: بماذا تفسر صمتك؟

– إذا تكلمت فلن أخفي رأيي.

أطلق تنهيدة مستخفة: لذلك تفضل الصمت.

أدركت أني لا أستطيع أن أقول ما أعتزم قوله، هززت رأسي، وظللت صامتًا.

أفضل الصمت، بدلًا من الخطأ في المعلومة، أو الرأي، تستغرقهم المناقشات في أمور أعرفها، لكنني لا أجيد الكلام فيها، أو أني أخشى التورط فيما لا شأن لي به. أضيق بنفسي لميلي — دائمًا — إلى المهادنة والمسايرة وعدم المواجهة، لا أبدي اعتراضًا، لا أسأل ولا أناقش، أُوثِر الابتعاد، ولو إلى داخل نفسي.

٥

حتى ثالث يوم لسكني في الشقة الصغيرة، في الطابق الأرضي، من البناية ذات الطوابق الستة بشارع الأهرام، ظلت الشقة الملاصقة مغلقة، تصورت سفر سكانها خارج القاهرة، أو أنها بلا سكان.

صحوت — في الليلة الرابعة — على ترامي أصوات أمام الشقة، رأيت — من جانب الباب الموارب — سيدة ترتدي عباءة واسعة من الحرير، ذات كمَّين واسعَين، يخفيان يديها، وشابين، يحملان حقائب وصناديق كرتون إلى الشقة المجاورة.

أغلقت الباب دون أن أتبين الملامح جيدًا، شغلتني تصورات حول ساكني الشقة، هل هم كثيرو العدد؟ أو أنهم — لضيق الشقة — أسرة صغيرة، أو أنه ساكن وحيد — مثلي — يسكن بمفرده؟

– صباح الخير.

كانت العادة تأخذني دون أن ألتفت إلى الباب المغلق. وقفت السيدة على الباب الذي انفتح على وسعه: جار جديد؟

في تلعثم: إن شاء الله.

علت شفتيها ابتسامة: حمد الله على السلامة.

ثم وهي تتهيأ لدخول الشقة: اسمي جنات ... خالتك جنات.

حين نظرت في عينيها، داخلني شعور بالألفة، تمتلك طلة آسرة، لفت شعرها بمدورة حمراء، بدت ممتلئة في الفستان الأبيض، زينت صدره بوردة من الكانفاه.

– أنا مازن ... موظف بالتليفونات.

قالت في عفوية: لا أبناء لي ... اعتبرني أمك.

أردفت لنظرتي المتسائلة: الزواج ليس شرطًا كي تحقق المرأة أمومتها!

استغربت نظرتي إليها، لم أستطع تخمين عمرها، هي بين الأربعين والخمسين، لكن تفصيلات الجسد، وملامح الوجه، غابت في منار التي انبثقت — بعد سنين طويلة — داخلي.

أول ما دخلت شقتي، اتسعت عيناها بنظرة دهشة، ثنت ذراعيها، وأمسكت بيديها جانبي وسطها: شقة ولَّا سويقة؟!

انعكس خلو الشقة من الأثاث في عينَيها بما يشبه الإشفاق، عدا تناثر الملابس والصحف والكتب المتناثرة، استند إلى الحائط فوتيل، أتمدد عليه وأنا أشاهد برامج التليفزيون في موضعه بين الحجرتين، في حجرة الجلوس تقابل الكرسيان والكنبة الأسيوطي، في الوسط ترابيزة خشبية مستطيلة، سطحها من الزجاج. وعلى الجدار صورة لمرسى القوارب في الميناء الشرقية، اقتطعتها من مجلة ثقافية.

لم تدخل حجرة النوم، وإن أطالت نظراتها إلى السرير السفري، والكرسي المعدني، والدولاب ذي الضلفة الواحدة، والمكتب الصغير لصق الجدار.

وهي تمضي إلى الباب، ألقت — بجانب عينها — نظرة على المطبخ: الحوض الخالي، والأدوات الساكنة فوق الأرفف، وعلى الجدار: من يطبخ طعامك؟

المطبخ ضيق، يسع ثلاجة صغيرة، وبوتاجاز شعلتين، ورخامة بامتداد الحوض، ورفًّا للأوعية.

ترددت في الإجابة، معظم طعامي سندوتشات فول وطعمية من الشبراوي، خلف العمارة، أو جبنة بيضاء وزيتون وحلاوة من محال الكوربة، أكتفي — ظهر كل خميس — بوجبة خضار وأرز، في مطعم الإمفتريون، قد ألجأ إلى ما في الثلاجة من الجبن والحلوى والطعام المجمد، أزمعت أن أحتفظ براتبي من أول الشهر إلى آخره، خشيت الاعتذار، أو الرفض، أو المساعدة في هيئة من يمنح صدقة.

تذكرت تعبيرًا قرأته، وإن نسيت قائله: «العزلة شيء جميل، لكن من المهم أن تجد شخصًا ما يقول لك إن العزلة جميلة.»

عصر اليوم التالي، فتحت الباب لطرقات براحة اليد، مدَّت صينية، فوقها أرز باللبن وثلاث كعكات: من صنع يدي.

لم يعُد يمر يوم دون أن ألتقيها، تضغط على الجرس لأفتح الباب، أو تدفع الباب إن كان مواربًا، وتدخل، تجلس في أي موضع.

الشقة متطابقة — في مساحتها وشكلها — مع شقتي، الحجرتان المتلاصقتان في مواجهة الباب، تفصل الصالة الصغيرة بينهما وبين المطبخ والحمام، أشاهد — من وقفتي

٥

على الباب — أثاث حجرة نوم. أعرف من مقاعد الأنتريه البنفسجي في الحجرة المجاورة، أنها خصصت للجلوس، هذا هو المعنى الواضح، وإن لم تدعني إلى الدخول، تمضي إلى داخل المطبخ والحمام، فطنت إلى أن بداخل المطبخ بابًا يفضي إلى منور. تعود بما تقدمه لي، تلتقي الشقتان في مواجهة البنايات المقابلة، وإن فصل بينهما جدار من الطوب الأحمر.

لم تبلغ صداقتنا حد أن أبادلها الزيارة، أطرق بابها، فتأذن لي بالدخول. أتوقع طرقاتها في أي وقت، تدخل — بعفوية — إلى الصالة، تحرص على فتح الباب والنافذة، دفعًا — ربما — للظنون والتأويلات، تجلس — في الغالب — على الكرسي المجاور لباب حجرة الجلوس، ربما أرفقت جلستها بالقول: عزمت نفسي على فنجان قهوة!

لمحت شيئًا في ركن الصالة، نزعت فردة الحذاء من قدمها، واتجهت ناحيته، فاجأته بضربة دهسته: الصراصير! ... مشكلة الأدوار الأرضية!

ما يلفت نظري في تعبيراتها، ضحكة رنانة، طويلة، تعلو فجأة، تنتهي ببحة متحشرجة، تثيرني.

شعرت — من انتظام أنفاسها — بوقفتها ورائي، تتأمل وقفتي إلى الجدار، أعلق — على مسمار ثبَّته فيه — خريطة لأحياء الإسكندرية.

– لماذا تركت مدينتك؟

أدرت رأسي: قد تجبرنا الظروف على ترك ما نحبه.

سألتني عن بحري، أسباب انتقالي من الإسكندرية، من هو سعد؟ لماذا لم تستكمل تعليمك؟ كيف تدبِّر حياتك؟ لماذا لا تصلي؟

ظلت صامتًا، خشيت أن يبين الارتباك في صوتي.

ومض في رأسي تشابك صورٍ ورؤًى: أذكر من أبي لومه الدائم لأمي أنها تطيل شعري، وتعقصه كالبنات، وتلبسني ملابس البنات، وتسرف في حنانها لي بما يغضبه، يقول لي المدرس: لو أن المدارس توافق على ما دون الصفر، فهي الدرجة التي تستحقها، أعتذر عن رحلات المدرسة إلى مطار الدخيلة، وحدائق النزهة، وحدائق أنطونيادس، وقلعة قايتباي، ومعهد علوم البحار بالأنفوشي، أهمل نظرة الاستغراب في عينَي أمي. نصائح أبي، يضمنها أسئلة: ألم أقل: لا تنظر وأنت تتكلم في عين من تكلمه؟ ألم أنبهك بألَّا ترفع صوتك؟ يعلو صوت سعد ناصحًا: لا تلقِ السنارة في الماء، دون أن تعد نفسك لجذب السمكة. أرهف السمع لترامي وقع أقدام أبي في الصالة، أدس «ألف ليلة وليلة» تحت الوسادة، أبسط في يدي كتاب المدرسة.

٦

حين يتقدم بنا العمر، فإن الحنين يشتدُّ إلى الماضي.

الزمن الحقيقي يختلف عن الزمن الذي نعرفه بالثانية والدقيقة والساعة واليوم والأسبوع والشهر والسنة والعقد والقرن إلى الدهر.

زمني الذي أطمئن إليه هو ما أحياه، وأتذكره.

لماذا استدعت رؤيتي لمها ما كنت نسيته من منار؟

حصلت من منار على ما لا أتصور أني سأحصل عليه من مها. ما كان طبيعيًّا في سنٍّ صغيرة، يصعب حدوثه، أو تصور حدوثه، في الكهولة.

التلبية وحدها ما أطلبه، الخضوع وكتم الأسئلة، لا أتوه في المدخل، وكيف أصل إلى اللحظة التي لا أجاوزها، ترضي ما بداخلي.

تمنيت أن أعاملها باعتبارها منار، أعادني إلى نفسي، إلى ما تمنيت فعله، أن مها ليست منار، السنوات متقاربة، لكن ما كنت أجده في منار يغيب عما قد أجده في مها. لم أحب منار، بمعنى أن حياتي تكتمل بها، فهي صغيرة، وكنت أصغر من أن أجدها في موضع الحبيبة، الجمال النائم هو ما أتوق إليه، لحظات نورانية، منفصلة عن العالم الذي يحيط بنا.

مها مجرد طفلة، لا تعرفني.

رمقتني بنظرة متسائلة، عند اقترابي منها، ربما أكثر مما يجب، نفضت تصوري للاستنكار، لصغر سنها.

هل تهبني البنت ما كانت تهبه لي منار؟

دفعني السؤال المفاجئ — في داخلي — للالتفات ناحية البنت.

هل توافق؟

حتى لو وافقت: كيف تواتيني الجرأة؟!

أنتبه لإيقاع خطواتها، ألفته عند نزولها من السلم الرخامي، أتابع انطلاقها نحو باب البيت، أبحث عما أذكره من منار، البنت التي أعادتها الذاكرة إلى حياتي، تكرر فتحي باب المنور، أتبين ما إذا كان شيء سقط من الطوابق العليا.

ظل الميل إلى تكرار ما فعلته منار كامنًا في ذاكرتي، أعرف أن مجرد التفكير في هذا الميل خطأ، لكنني لم أخلقه في نفسي، بل خلقه الله، هو الذي ثبت الصورة القديمة في ذهني، يلح في الاستعادة والتكرار. السر لا يصبح سرًّا إذا رواه الإنسان، أزمعت أن أحتفظ بالسر — هل هو كذلك؟ — يظل مودعًا في صدري، لا أبوح به.

شغلتني الفكرة، تضخمت في داخلي، تحولت إلى ما لا أقوى على مغالبته، في لحظة ما، لفني خوف أن أكون قد صرت مهووسًا بما لا أفهمه أنا نفسي، بما تغيب ملامحه، تسيطر على أفكاري وتصرفاتي، ونظراتي إلى الآخرين، إلى الأخريات.

تبعتها في زحام شارع إبراهيم اللقاني، عبرت تقاطعات ميدان روكسي، حتى أول شارع الخليفة المأمون، مالت — من الجانب — في اتجاه الشارع الموازي لمترو مصر الجديدة.

قبل أن تميل إلى شارع المقريزي، نظرت خلفها، أدركت — من يدها الملوحة، وابتسامتها — أنها كانت تعرف سيري وراءها.

هذه الفتاة، وضعتها الظروف على طريقي لتبدل حياتي تمامًا، لتحرك في داخلي مشاعر كنت نسيتها، أو أنها تلاشت من ذاكرتي. أدركت أنها تسكن تفكيري، تخالط صورتها انشغالي بأشياء ضرورية.

الطبيعة الإنسانية ليست معدنًا ثابت الخواص، فتظل على حالها حتى النهاية. أستعيد الرائحة، أو أنها تظل في أنفي، وميض عينيها، صوتها الخافت كالهمس، جسدها الطفل، المكتمل التكوين.

تبينت أني لم أبتعد — رغم انقضاء السنوات — عن تلك الأيام البعيدة، أتكلم عن منار، علاقة السنين الفائتة، ما لا أذكره من السنين، وإن كنت أيامها في غير السحنة والشكل والمزاج.

بدا ذلك الموقف القديم الوامض، كأنه عقدة أعيش فيها، لا أستطيع أن أقاومها، أو أحلها، كلمة «خلاص» أتنبه لتناثرها حولي، تجتذب سمعي، تعيدني إلى منار، وجسدها المستلقي، وسؤالها.

تلحُّ على ذهني لأيام، ثم تختفي. أتصور أن الأمر انتهى، لكنها تعود بالإلحاح نفسه، أسلم نفسي لرؤى منار، في أوضاع حقيقية ومتخيلة، تتقاطع بالكلمة ذات الرنين: خلاص. أستعيد النظرة التي أحبها في عينيها، أنفها الدقيق، ذراعيها الدائمتي الحركة، تجتذبني الدوامات الواسعة، تعود بي إلى حيث بدأت.

أزمعت أن أترك ورائي كل ما حدث في الإسكندرية، أنساه كأنه لم يكن، أخطو في أرض لم يسبق لي السير فوقها، أعرف ناسًا غير الذين عرفتهم في الإسكندرية.

أعاني حرجًا في البوح بما أخفيه، بالسر الذي طال كتمه، وأخشى — لو تكلمت — تأثيراته.

نحن لا نختار ما ننساه، قد نتذكر أشياء تمنينا لو أنها سقطت من الذاكرة، وقد ننسى ما نعتبره ذكريات جميلة، رقدة منار الهادئة، المستكينة، أراها في صورة مجلة، مشهد ولد وبنت على شاشة التليفزيون، ترامي الكلمة التي كانت منار تتهيأ بها للقيام: خلاص.

أحاول إبعادها عن ذهني، لكنها تعاود الإلحاح. يظل طيفها، ملامحها، في نفسي، كأنها ثبتت في رأسي، لا تزايله.

أدرك نظرات الاستهجان التي ستحرقني، عندما أتحدَّث عن الجسد الذي أخذتني تكويناته، كهل يسيء إلى نفسه، وإلى صبية صغيرة، وضعها في غير سنها.

غلبتني الحيرة، لا أدرى: هل أتكلم؟ هل أحاول الاقتراب، أو أبتعد؟ هل يبدو ما أفعله طبيعيًّا، أو تصدني بما لا أتوقعه؟

أعاني الرغبة في لمسها، والخوف من رد الفعل، أخاف أن تبدي ما لا أتوقعه، ويؤلمني، لم تتوثق علاقتنا بما يجعل تغاضيها واردًا.

يتكرر نزولي إلى الطريق، أتباطأ — في عودتي — عند المدخل، الدرجات الرخامية الخمس، البسطة الممتدة إلى الأبواب الثلاثة، والسلالم الجانبية، أحدق في صندوق البريد، كأني أفتش عن رسائل لي، أعرف أن العنوان جديد، رسائل الهيئة أتسلمها في مدخل السنترال، أعيش التوقع أن تصعد مها من الشارع، أو ننزل إليه، لا أعد في نفسي كلمات أقولها، لا أسأل، ولا أبدي ملاحظة، مجرد أن أراها، أستعيد لحظات بعيدة، تصورت أني نسيتها. أرنو — في ميلي ناحية الشقة — إلى منور السلم، كأني أتوقع من تشغلني رؤيته.

أزمعت — لو أتيح لي لقاؤها — تبديل العبارة التي أعددت نفسي لقولها، أو عدم نطقها، أنت في سن ابنتي، أجتذبها بكلمات تزين لها ما أريد، الجرأة هي ما عكسته كلماتها وتصرفاتها، لكنها لم تلامس الغابة المشوقة لوطء قدميها، تصدني عبارات تؤلمني

عفويتها، جدار تصنعه دون تعمد، يعروني العجز عن محاولة النظر من فوقه، أكتفي بصفو السماء، وخلوها من السحب.

لو أنها فطنت إلى متابعتي لها، ربما أخبرت أهلها بتصرفي، وربما وجدوا في التصرف ما يثير القلق.

هل أدعوها للاطمئنان من ناحيتي، أو أقنع نفسي بالمسافة التي تفصلنا؟

هل أعثر على الكلمات التي أجيب بها عن أسئلة — تدينني — لا أتوقعها؟!

٧

الرغبة تحيا داخلي، تناوشني، تريد أن تظهر، أعاني كي أخرج عن صمتي، أبوح بما أكتمه.

قالت الست جنات بعفوية: الحاجة إلى الجنس ضرورة حتى نهاية العمر ... هل يمتنع الإنسان في شيخوخته عن الطعام والنوم؟

لم يكن السؤال قد خطر على بالي، ولا فكرت فيه من قبل.

حين فطنت إلى ما حولي، كان كل شيء — بتقدم العمر — قد أصبح متأخرًا، أشعر أن الكهولة تلاحقني بلا إبطاء، وبقسوة، وإن تنامت الألفة بيننا بما لم يخطر في بالي.

كل شيء صار متأخرًا.

نزعت حذاءها، مدت ساقيها على الكرسي المقابل، وأسندت رأسها إلى مسند الكرسي.

– أحبها.

أردفت وهي تشير إلى فايزة أحمد في شاشة التليفزيون: ليست جميلة، لكن صوتها هو الجمال نفسه!

افترت شفتاها عن ابتسامة صامتة، عندما لمحت نظرتي المتفحصة لساقيها.

فاجأتني بالقول: لماذا لا تتزوج؟

الزواج؟

لو أن علاقتي بفردوس سارت في الطريق الطبيعية، ربما كنت تزوجتها، لكنها اعتذرت عن عدم مواصلة علاقتنا بما لم أفهمه.

شعرت بالكلمات متثاقلة: ظروفي المادية لا تسمح.

– مرتبك على مرتبها.

– من يضمن أنها توافق؟

ابتسمت في تخابث: صداقة النساء ليست مستحيلة.

قلت بلهوجة: أخجل أن أعرض نفسي.

وهي تزيل خصلة الشعر المتهدلة على عينها: أول مرة أشاهد رجلًا يخشى الزواج لأنه خجول ... الخجل يضيِّع فرصة المرأة وحدها!

ودون أن تجاوز عفويتها: لا شأن للسنِّ بما يحب الإنسان ويكره.

أشحت بوجهي كي لا تعرف أني لمحت ساقيها، ضبطَت نظراتي تلاحقها، تركز على الساقَين العاريتَين، مدملجتين تستحثان على ملامستهما، تخيلت مداعبة أصابعي. تصعد إلى الركبتين، أهمس في أذنها: لماذا لا تستلقين وتفتحين ساقيك؟! أحيطها بساعدي، يفح لهاثي في أذنها، ألمس ثدييها، انتصابهما — من وراء البلوزة — يغريني بأن أمد يدي، أقضم الحلمتين بشفتين شبقتين، أعانقها دون أية ملابس تفصل بين جسدَينا، يختلط عرقي وعرقها، أدخل فيها، نصير جسدًا واحدًا. تضج الغابة بالزئير والعواء والفحيح والنعيق والنهيق والهديل والصهيل والزمجرة، تتعالى آهة ذروة النشوة.

حرصت أن يغيب عن التفاتها وميض الرغبة في نظراتي.

شيء ما تبدل في داخلي، شيء غامض، لا أدري كنهه، جذبني إليها، منعني الخجل، ولعله الخوف، من أن أصارحها بما في نفسي.

تبينت — ذات مغرب — أني أتحسس ثنية الكرسي التي نضحت بعرق فخذيها، لامست أنفي — بتلقائية — متشممًا.

واتتني جرأة لم أعرف أني أمتلكها: هيئتك رجل!

شوحت بيدها: لم ترني على السرير.

وداعبت طرف شعرة في رأسها: لا أصبغ شعري، هذا لونه الطبيعي.

اصطدمت يدي — بعفوية — بكوب الشاي، أحدث تهشم الزجاج صوتًا عاليًا، وتناثرت طرطشات اللون البني على جلبابي.

لاحظت أنها رفعت الكلفة — للمرة الأولى — في كلامها معي، لم أكن هيأت نفسي لما قالته، أحسست بالارتباك في إغماض عينَيَّ، وارتعاش صوتي.

ومضت عيناها بالشك فيما أضمره.

ثمة شيء تصاعد في أعماقي، وطفا على مشاعري، في داخلي ما لا حصر له من الأفكار والمشاعر والألوان والإيقاعات. تخيلت أني أمسك بكتفيها من الخلف، أديرها ناحيتي، أدنو بوجهي من وجهها، أعتصر شفتيها في قبلة طويلة، أسحبها من ساقيها الممددتين، ألقي بها على الأرض، يختلط العرق والأنفاس.

حل صمت، لم أستطع خلاله أن أتدبر ماذا أقول، تلاشت الرغبة في نطق الكلمات التي أعددت نفسي لقولها، التردد — ولعله الخوف — ألجم لساني، هو عقدة تسكنني.

لجأت إلى الاستمناء، فرارًا من ضغط لم أستطع مغالبته.

من طبعي — كما رويت لك — أني أخشى المواجهة، والمجهول، وما لا أعرفه. أتردد في طرق باب الغرفة الواحدة والأربعين، المغلقة، لا أبدي آراء، ولا ملاحظات تدينني، أفضل الثابت والمستقر، لا أبدل المكان الذي ألفته، حتى الكرسي داخل القهوة، أحاول ألَّا أبدله في أوقات ترددي عليه.

بدا لي ثروت الزيات ودودًا، وإن اتسمت نبرات صوته بما يشبه التعالي، عدا مناقشات السنترال، يشارك فيها بآراء، وأكتفي بالإنصات، لم ينشأ بيني وبينه حوار ما، نبرته المتعالية في تعقيبه على آرائي المرتبكة تلزمني الصمت.

– أنت غريب في القاهرة ... لماذا لا نتزاور؟

كتمت ما اعتدته من عدم تلبية دعوات الزيارات الأسرية، خجل قديم في طبعي، تغيب بداياته، وإن كنت أجد الإرهاصات في تحذيرات أمي بألَّا أبتعد في ألعابي عن البيت. مرة وحيدة دخلت سينما نورماندي بمفردي، فضلت آخر أيام العرض، يضايقني الزحام.

وجدت في الدعوة ما يستحق التأمل.

أنا بلا أقارب في القاهرة، ولا حتى أصدقاء.

عهدت إلى قناوي أن يدفع — أوقات وجودي في السنترال — إيجار الشقة وفواتير الكهرباء والغاز، صلتي بزملاء السنترال ترافقني إلى الباب، لا يخطر في بالي إلا أصداء آراء المهندس عاطف غيث، وما يدور حولها من آراء مقنعة، وسخيفة.

تحدث — وأنا أحتسي كوب الشاي بالنعناع — عن الكرم المتأصل في أسرته، وأنه يوجد — إلى جانب الشاي بالنعناع — مشروبات أخرى، مثل القهوة والينسون والعنَّاب، وإن كان صنع المشروب الأخير يحتاج إلى وقت.

قبل أن أتهيأ للقيام، نظرت إلى تهيؤ مماثل في وجهه للكلام.

أومأت برأسي أستحثه على القول.

نطقت ملامحه بالتأثر: أعاني مشكلة قد تجد الحل لديك.

حاولت أن تعكس ملامحي اهتمامًا حقيقيًّا.

أضاف في تأثره: خطيبتي [لم أكن أعرف الأمر من قبل] أوصلت العلاقة بيني وبينها إلى طريق مسدودة، هل تأذن لي بزيارتك في شقتك لتصفية خلافاتنا؟

– أنا لا أعرف خطيبتك، ربما شعرت بالحرج في وجودي!

– لست مضطرًّا للجلوس معنا. شقتك — كما رأيتها — حجرتان وصالة، يمكن أن تجلس في الصالة، أو في حجرة النوم، حتى لا نعاني الحرج في مناقشة أسباب الخلاف.

زارني الزيات برفقة خطيبته.

لم أدقِّق في ملامحها؛ لأنه دفع بها إلى حجرة الجلوس، ما أذكره في التقاطي السريع لملامحها، كان جيدًا، ممشوقة القوام، تحيط رأسها بإيشارب، ويخلو وجهها من المساحيق.

تعددت الزيارات، أجلس في الصالة، أتوقع تكة ترباس الحجرة، والزجاج المغبش للنافذة الموصلة بين الحجرة والصالة يفصل بين المكانين تمامًا.

قلت لنفسي — ليلة — وأنا أعاني الانتظار السخيف: هل الخلاف بين ثروت الزيات وخطيبته أعمق من الخلاف بين الدول المتحاربة؟!

رفعت نظرة استياء، أو استغاثة صامتة، إلى النافذة المغبشة. تبينت — بالمصادفة — شقًّا رفيعًا بطول المسافة بين النافذة والجدار.

رأيت ثروت الزيات وخطيبته في عزلة عن الدنيا كلها، من خلال انغماسهما في عناق، تشابك فيه جسداهما العاريان، فلم أعرف — لضيق مساحة الرؤية — كيف تداخلا، وإلى أي مدًى!

أدركت طبيعة ما يحدث، لكنني بقيت صامتًا، لا أعرف كيف أتصرف.

لم أبتعد عن وقفتي أمام باب الحجرة، حتى علت تكة المفتاح.

سحبت كتف الزيات، وهو يدفع البنت خارج الشقة، ويرفع يده — كالعادة — مودعًا.

– هذه البنت ليست خطيبتك!

مد يديه الخاليتين من دبلة أو خاتم، وكست وجهه نظرة بريئة: كلمتك عن خلاف الخطيبين فعرفت أنك فهمت سر العلاقة.

وزادت نظرته البريئة اتساعًا: ألم تكن تعرف ما نفعل في الحجرة؟!

شعرت بما لا أعرفه في داخلي، يذوي، يتهاوى، يأخذني إلى أعماق لا أعرفها، ولا إلى أين تنتهي، ربما السذاجة بعض ما تدل عليه قسمات وجهي. ثمة ما يحرض البعض على التعامل معي في ضوء هذه السذاجة، التي لا أعرف سرها على وجه التحديد، وإن كنت أجدها سببًا لكل ما عانيته — في حياتي — من سخافات غريبة.

قال لي ثروت الزيات حين التقينا في السنترال: ألا زلت واخد على خاطرك؟

ثم وهو يحدجني بنظرة مستخفة: لكل زمن لغته، لو أنك عجوز كنت سأعيب عليك عدم فهم لغة العصر!

ذلك الفعل القديم منطقة عانيت حتى صنعتها، لا حيلة لي — بعد أن تركتها — في العودة إليها، لا أستطيع — بتأثير الزمن، وبعوامل كثيرة — أن أعود إليها.

منار طيف، شحب — بتوالي الأيام — ثم اختفى.

أشرد في تهويمات وتصورات، يتسلل صوتها: خلاص، يعيدني إلى اللحظة التي كأنها التصقت بذاكرتي.

أشياء كثيرة تلوح لي، كيف ألتقط طرف الخيط؟

أعاني إلحاح المشكلة، ما أريد أن أبوح به، والبحث عن الأذن المنصتة.

أشعر أني بحاجة إلى المشي لأعيد ترتيب أفكاري. تمنيت أن أكلم شخصًا ما، أعطي له وآخذ منه، أنتبه فلا يتحدث بما يضايقني، أجلس إلى من ينصحني: ماذا أفعل؟

أتردد، ثم أصمت، لا أفاتح الآخرين في شيء يخصني، أخشى الملاحظات، أو التوبيخ، أو السخرية.

أغمضت عيني، حاولت أن أسترجع ملامح منار، هل كانت مشابهة لهذه البنت؟ إن لم يكن ذلك هو ما أعاد منار إلى ذاكرتي، فلماذا التذكر وإيجاد الصلة بين الحادثة القديمة وما يبدو إيقاظًا لها؟

أعرف أن منار — إن كانت ما تزال حية — تقدمت في العمر، ربما صارت أمًّا، يختلط ما أراه وما تستدعيه الذاكرة: الوجه الجميل المنمنم الملامح، الشعر الأسود، الناعم، المهوش، الغمازتان في الوجنتين المصطبغتين بالحمرة، الصدر الصغير تتوسطه ليمونتان تشيان باقتراب البلوغ، أو بلوغه، الساقان المدملجتان، حتى الشعر المنسدل خلف الظهر، لا أفرق إن كان لمها الساكنة فوقي، أم منار التي لم يغيبها تباعد السنوات.

تسللت الفكرة إلى رأسي، لما استقرَّت، بدأت في التضخم إلى حد شغل الذهن، استحوذت على تفكيري تمامًا. تعدَّدت أوقات استعادتي تلك اللحظات القديمة، أحدق في الجسد المتكور، بلا حركة، ولا كلام، تنهض متسائلة: خلاص؟

أردُّ بإيماءة، أو بترديد الكلمة، وأنا أتوه فيما لا أتبينه.

جسدك وردة، علاقة المرء بالوردة في اقترابه منها، ملامسته لها، الرؤية من بعيد كرؤية الصورة، تخاطب النظر، لكنها لا تنفذ إلى المشاعر، إلى الوجدان. يا عروس البحر، لست المخلوقة الشائهة في مدخل مبنى الأحياء المائية، لكنك السحر والقوة والطمأنينة، قلبي بحر تحسنين العوم فيه، أنت حورية الجنة، ست الحسن والجمال، سمكتي المفعمة بالحياة، سندريللتي الصغيرة، اكتمال البدر، أنفاس السحر، نسيم الصباح، سطوع الشمس، تآلف الموسيقى وقصائد الغزل والرقصات الملونة.

مشاعر ابن السادسة عشرة، أخضعها لابن التاسعة والثلاثين، لم أكتم مشاعري، لا تبين في تصرفاتي، ولا ما أقوله، أتشاغل بالكلام، أتظاهر أني أتكلم، أختلق مواقف، ألمس فيها جسدها، ما تبلغه يداي من الجسد الذي يجذبني بما لا أعرفه. الرعشة تسري من أطراف أصابعي، منابع النشوة في الجسد، أستكين إليها، تتواصل اللحظات، يأخذها الزمن السرمدي، يحلق بها في سماوات لا نهاية لآفاقها.

أفكر في أن أقاسم جنات سري، لكن الخجل، وربما الخوف، جدار، عائق، أمام محاولاتي للبوح، أشعر بثقل ما أعتزم حكايته، كيف أقوله، كيف تنصت إلى كلماتي. أقلب المعاني والتعبيرات والكلمات، أهمل ما قد لا تقتنع به، أو ترفضه، ألوك الكلمات في فمي، أهم بنطقها، تتصاعد التحذيرات والمخاوف، أخشى المجهول، واللامتوقع.

أحاول أن أحرر لساني ليتكلم، ينطق بما في داخلي، يعبر عن المشاعر التي طال حبسها، الرغبة والتوق والأمنية.

تمنيت أن يأخذني الانفعال، فأبكي على كتف جنات.

أدركت أن الأمر ليس بالبساطة التي تصورتها، وأنها قد تواجهني بعدم الفهم، أو الاستياء، أو الغضب.

لم أتصور ركض الأيام بهذه الصورة.

أتسكع في مصر الجديدة بلا هدف، لا أصنع شيئًا، اختلاط الطابع الإسلامي بالطابع الأوروبي، القباب العربية، الأعمدة الحجرية الهائلة الواصلة بين الطوابق، الشبابيك العالية، الشرفات الدائرية، والمستطيلة، والمربعة، المقرنصات، أميل إلى شارع الحجاز، ومنه إلى ميدان روكسي بزحامه الصاخب، أخترق الشوارع المتفرعة منه، حتى نادي هليوبوليس، غالبيتها يسكنها الهدوء، أستأنف السير حتى شارع الخليفة المأمون، أو أمشي في شارع الميرغني الطويل، على يساري مبنى الوزارة الاتحادية حتى تقاطعه مع العروبة، أعود من الطريق نفسه، أو أتخلل الشوارع الجانبية إلى شارع الأهرام. ربما أخذت المترو في تفريعاته الثلاث: النزهة، عبد العزيز فهمي، الميرغني.

الكشك على ناصية الطريق، أشتري احتياجاتي منه، السوبر ماركت — على بعد أمتار — يصدني — بأبهته وأضوائه — عن الدخول، يجتذبني الكشك بالألفة، يأخذني الكلام، وقفتي إلى الرجل الذي بدا في أواخر الثلاثين، وإن قدم نفسه لي مسبوقًا بكلمة «عمك»، عمك زناتي.

ربما ملت إلى شارع بغداد، في موازاة شارع عثمان بن عفان، يأخذني طابعه الأوروبي، أشبه بالشوارع المتفرعة من شوارع وسط البلد بالإسكندرية، إضافة إلى البواكي التي

تذكرني بقراءاتي عن مدن القاهرة القديمة: البنوك والبازارات وشركات السياحة، ومحال الملابس الجاهزة والمجوهرات والتحف، والمقاهي ومحال الخبز الإفرنجي والحلوى. أطيل التوقف أمام الواجهات الزجاجية، أتأمل البضائع المعروضة، أدور حول البنايات إلى شارع إبراهيم اللقاني، أتبين أن الوقت سرقني، أعود إلى البيت.

سألت جنات عن معنى كلمة كوربة، هل هي من الكرب؟

رفت ابتسامتها المشفقة: الكوربا ... عرفت من عبد العليم أنها حجر كريم.

اكتفيت بالقول: هكذا تبدو.

خطر في بالي — ذات مغرب — أن أتعرف إلى المكان الذي غنَّى فيه عبد الحليم حافظ «في يوم ... في شهر ... في سنة». حدست أنه الخلاء المجاور لحديقة الميريلاند قبل أن تشغله البنايات.

يأخذني السير في الشوارع المتقاطعة، الخالية، لا يشغلني أين أذهب، ولا أحاول حتى الالتفات إلى ما بداخل الدكاكين والنوافذ المفتوحة، ولا إلى الأصوات المترامية من أماكن لا أراها. ألتقط الأسماء من اللافتات الحديدية الزرقاء: نزيه خليفة، شريف، إبراهيم، الصباغ، رمسيس، فكري باشا، البوستة، بطرس غالي، المعهد الاشتراكي، سيد عبد الواحد، بواكي شارع بغداد مشابهة لشوارع بدايات مصر الجديدة، وإن اختلفت في الجو الأوروبي الذي اجتذبني بنوعية المحال المتلاصقة، أشبه بشارع شريف بالإسكندرية، والشوارع المتفرعة منه.

أجاوز دور سينما ومدارس ومساجد وكنائس ومعبدًا لليهود، ومطاعم ومقاهي ودور سينما وفنادق ومحال تصوير، ربما سرت في شارع الميرغني حتى الانحناءة المؤدية إلى كلية البنات.

لم تكن تهمني نهاية السير، يشغلني أن أذهب إلى أي مكان، أبتعد — بالفضول وحب الاكتشاف والدهشة — عن كل ما يحيط بي.

قاومت الإجهاد بعد أن بلغت سطح البناية ذات الستة عشر طابقًا، لا سكان، ولا حراس، حتى البناء لم يكتمل.

قال قناوي: إن الأمن — لم يحدد لي الجهة — تبين علو العمارة، بما يتيح النظر — من السطح والطوابق العليا — على قصر الاتحادية، كل ما في القصر من بنايات وحدائق وساحات. ظلت العمارة خالية، عدا الطابقين الأولين، كان البنك المركزي قد شغلهما قبل أن ينتبه الأمن.

فطنت إلى أنه يعاني ثقلًا في لسانه، يحركه في صعوبة، ويدغم نهاية الكلمات.

ملأت اللهفة عينَي جنات: أين كنت؟

– أتأمل مصر الجديدة.

– ماذا تقصد؟

– كنت في سطح عمارة البنك المركزي.

سطح العمارة يطل — من جوانبه الأربعة — على قصر الرئاسة، والمساحات الخضراء في نادي هليوبوليس، وقصر البارون إمبان بعمارته القوطية، وغموضه وسحره وأسراره الغائبة، والشرفات، والمآذن المتناثرة، المتقاربة، والقباب العربية، والمنارات، والبواكي، وتوسط كنيسة البازيليك ما يشبه الميدان المفضي إلى شوارع كثيرة، وقضبان المترو تشق الشوارع الواسعة، ومهبط الطائرات في نهاية الأفق.

لطمت خديها: مجنون ... تريد الموت؟

أدركت — من نظرة عينيها — أن الخوف ظهر على ملامحي، تملكتني عاطفة غامضة، غريبة، تبدو كمن تعاني مشكلةً ما، لكنها تكتم رغبتها في البوح، كأنها تخشى نتائج لا تعرفها، ويصعب أن تتبينها، اعتدت صمتها، تخدشه بدعابة، أو نكتة، تتبعها ضحكة ذات رنين، تعود إلى صمتها، ثم تلتقط طرف خيط حزن، تتذكر ما كان أحزنها، فتنخرط في البكاء، لا تثبت على انفعال، وإن اتسمت تصرفاتها بالتعاطف والطيبة.

وأنا أحاول التغلب على ارتعاشة صوتي: هل الفرجة عقابها الموت؟

التمعت عيناها بالدمع: دفع عبد العليم حياته ثمنًا لصعود السطح.

النافذة تطل — من اليسار — على العمارة المجاورة، تفصل بين العمارتين طرقة مبلطة، وتطل نافذة أخرى على البناية المتهدمة.

لاحظوا تعدد وقوف عبد العليم فوق سطح العمارة المواجهة، تشرف — كما تعرف — على مبنى الرئاسة. أخذوه من البيت، قالوا: مجرد أسئلة، وتعود. لكنه لم يعُد.

لم أعرف أين أخذوه، ولا متى سيعود، وإن داخلني اطمئنان أني سأراه ثانية.

فتحت الباب — ذات صباح — على طرقات خافتة.

لم يكن عبد العليم الذي أعرفه.

آلمني قوله إنه حين اصطدمت عيناه بمرآة التاكسي، تذكر الأشهر التي أمضاها في المعتقل دون أن يتاح له رؤية ملامحه.

– عذبوك؟

رمقني بنظرة متسائلة، غاضبة، ومال بذقنه على صدره، وسكت. عرفت أن النظرة التي تدرك تغني عن توجيه الأسئلة، لم أعد إلى سؤاله عن فترة الغياب، وإن حاولت مساعدته على البوح، أشير بعبارات مواساة، ربما تدفعه إلى الكلام عما جرى، لكنه ظل على هدوئه، وصمته، وشروده، كأنه يتأمل ما يراه وحده.

لم تتغير ملامحه، حتى عيناه ظلتا على اتساعهما، لكن انطفاء النظرات بدَّل الكثير، غاب عبد العليم الذي عاشرته زمنًا، حل عبد العليم آخر، يثير القلق والخوف والإشفاق.

حدست — وإن لم يتكلم — أنه تحمل ما لا يمكن احتماله: الارتعاشة في قسمات وجهه، استغراقه في الشرود والصمت، تخليه عن الملاحظات القاسية والشتائم، غياب ما كان يلجأ إليه من اللكزات والضرب.

أغمض العينين، أحاول أن أتخيَّل ما جرى له حيث ذهب، تعددت سرحاتي في تصور المكان الذي اقتادوه إليه، كأن الأرض انشقت وابتلعته، ثم لفظته، فطنت إلى أنه خضع للتعذيب، من الحروق والكدمات والخدوش التي ملأت جسده.

هو ليس عبد العليم الذي أعرفه، إنه شخص آخر، ذابل البنية، بطيء الحركة، ذاهل عما حوله، يرفض محاولات إعادته إلى نفسه، وإلى حياتنا، همني أن أفعل ما يعيده إلى نفسه، أحزن لجموده الساكن، يشي بحزن أعجز عن فهم أسبابه، وكيف أزيلها، تعمدت الصراخ في وجهه كي أنبهه، فيضربني، يعود إلى ما اعتدت من حياتنا، لكنه ظل على هموده.

تناولنا الإفطار، وضع يده على صدره، وتحشرج بالألم، ثم حل السكون.

قال الطبيب بلهجة فاهمة: لا توجد سكتة قلبية ... السكتة في الدماغ.

صرخت: في القلب أو في الدماغ ... الرجل مات!

أطعت تحذيرهم بألَّا أشيعه في جنازة، ولا أقيم له عزاء.

فرت بنظرها إلى بعيد؛ كي لا أكتشف الأسى في ملامحها: ظل عبد العليم يتردد على مساجد السيدة زينب والحسين والسيدة عائشة والسيدة نفيسة، يظل في المسجد إلى ما بعد صلاة العشاء، خمنت أنه يقصد آل البيت للتشفع في إطعامنا الذرية، لا يدعوني لمرافقته حتى لا يحدث ما يرجوه، فأتألم.

كان قد مضى أكثر من عشر سنوات على زواجنا. لم يعد للجنس جاذبيته القديمة، تباعدت الأوقات، حتى تغلب النسيان، ومضات تمليها لحظة استجابة، ثم يستغرقنا النوم.

ألفت ضربه لي، أخشى — إن توقف عن ضربي — أنه لم يعد يحبني، ربما أغوته امرأة أخرى، أستفزه بما يثيره، يدفعه إلى ضربي، أطمئن إلى أن حبه لي لم يتبدل، يضربني عندما يتصور تقصيرًا مني، أو أني لا ألبي أوامره، ربما لم يكن يحبني، لكنني كنت أحبه.

عرفت أن قسوته لمداراة ألمه، ضربه لي تنفيس عما يعانيه من اليأس والسأم والملل، عرف ما أعرفه: مشكلة عدم الإنجاب تخصه، ولا تخصني، ذلك ما أثبتته التحليلات والأشعة، أدركت أنه يعاني لعدم قدرته على الإنجاب.

ثار لقولي، وهو يطفئ النور: لماذا لا تحتفظ بصحتك؟

رفع إصبعه من مفتاح النور، مال ناحيتي بعينين ناريتين، لم يهدأ عن ضربي حتى استعصى عليه التقاط أنفاسه. من تحب رجلًا تتقبل نقائصه.

شجعته على الجلوس في الأمفتريون، يبتعد عن كتمة البيت، يغير جوًّا، يبدل هواء، يشاهد حركة الطريق. رابع مرة، أمسك قلمًا وورقة، سجل أرقامًا، بسطها أمامي، وقال في نبرة محذرة: الأسعار نار!

تكررت عودتي إلى بنها، لا أكاد أقيم في بيت أبي يومين، أو ثلاثة، حتى يأتي، يعتذر بظروفه، ويعيدني إلى القاهرة.

حتى بعد أن أقعد المرض عبد العليم، ظل يتصرف كأنه هو الذي يملك القرار بمفرده، وأن رأيي غير مطلوب.

تأرجحت مشاعري نحوه بين الحب والتألم، ثم تبلورت إثر المحنة التي عاناها، امتزج الحب والإشفاق، صار حبًّا خالصًا.

تصورت أن الراحة هي ما سأحصل عليه بعد موته، يزول التوقع والقلق والإشفاق. العكس اقتحمني، غمرني الشعور بالفقد والوحدة، أدركت أن عبد العليم كان كل شيء في حياتي، وأن ابتعاده يجعل الحياة بلا معنًى، حتى إقامته الساكنة في البيت حمتني من النظرات إلى الأرملة. ربما اختلف شعوري لو أن الله أطعمني طفلًا. من يطرق بابًا سيغالب التردد لو عرف أن في الداخل رجلًا، لن تشغله صحة الرجل أو مرضه، المهم أنه رجل، يملأ حياتي، ويجنبني فضول الناس وأذاهم.

ذلك ما فطنت إليه بعد أن عدت من المقابر، وصرت وحيدةً في الشقة، عرفت أني سأقضي بقية عمري دون سند، حتى لو كان السند زوجًا مريضًا.

حاولت — من يومها — مواجهة الأمر الواقع، أدبر نفسي بالمعاش، إن تضايقت أسافر إلى بنها، أقضي أيامًا وأعود.

أمسكت رأسها بيديها لحظات، ثم قالت في صوت متعب: أرعى ابنَي أختي، ربما كان ذلك تصرفهما إن أطال الله عمري.

اهتز فنجان القهوة في يدها: نحن نفتقد أعزاء رحلوا … وسيفتقدنا حين نرحل من يرون أننا أعزاء.

٧

غلظ صوتها بالحزن: كان عبد العليم موظفًا في الشركة العامة القابضة للغزل والنسيج.

وهشت ما بدا أنه حشرة طائرة: تقاعد بالمعاش المبكر.

ووشى تهدُّج صوتها بتهيؤ للبكاء.

– إذا كان عبد العليم قد تركني وحيدة في الدنيا، فسألحق به في الآخرة.

استطردت فيما يشبه الهمس: في الجنة بإذن الله!

ورنت نحوي بنظرة دامعة: وعدني إن قدر له دخول الجنة أن يظل على أبوابها، حتى أصحبه في دخولها.

شردت في الفراغ: ماذا يحدث في الجنة؟

غلبني الحرج والارتباك، عانيت الإحباط لدرجة منعتني من التفكير.

حدجتني بعينَين يملؤهما الحزن: إذا كان الرجل يتزوج حور العين، فماذا تفعل نساء الدنيا؟ من يتزوجهن؟ هل يوجد رجال في الجنة يعقدن على نساء الدنيا؟

تبلدت مشاعري تمامًا، لم يعُد يشغلني التفكير في أي شيء، أتظاهر بالنظر فيما حولي، كي أتفادى نظراتها.

ربتت ركبتي: عبد العليم هو — بإذن الله — زوجي في الجنة.

وبدا كأنها تستعيد مداعبته لها: لا ترتكبي الذنوب حتى تدخلي الجنة، إذا فعلت ما يدخلك النار، فسأكتفي بالتلويح لك من شرفات الجنة.

قلت: اسمه عبد العليم؟

أومأت برأسها: كنت أسبق اسمه بسي ... هو سي عبد العليم.

– بماذا كان يدعوك؟

– جنات.

قالت جنات وهي تنظر إلى الكتب والصحف المتناثرة: لم تعد تقرأ؟!

ابتسمت لملاحظتها: التأمل قيمة تالية للقراءة ... وأهم منها.

ورنوت إلى بحيرة العسل في عينيها: لا قيمة للقراءة إن لم يصحبها التأمل.

أردفت كالمتذكر: بالمناسبة، يتناقلون في السنترال شائعة بتخصيص التليفونات.

واتجهت إليها بنظرة متحيرة.

قالت بلهجة تشفُّ عن الأسى: تجربة عبد العليم في الخصخصة مؤلمة.

والتمعت عيناها ببريق الحزن: أجبروه بالمعاش المبكر على تنغيص حياتي في البيت.

قلت: أخشى الفصل!

شوحت بيدها كمن يطرد ذبابة.

– أنت أصغر من سن المعاش المبكر.

واستعادت عيناها التماع البريق: ضعف إرادتك يمنعك من رؤية الحقيقة.

وهزت إصبعها بما يشبه التحذير: إذا لم تغامر فلن تحصل على ما تريد.

أدركت أني أحب نبرة صوتها، البحة الجميلة في نهاية الكلمات تجذبني إليها، توقظ في نفسي ما أنتشي منه، وإن لم أتبينه جيدًا، يتخلل ما تقوله إيماءات، تحرك المعاني الغامضة في داخلي. ربما لو أني تكلمت عن مشاعري، هواجسي، أمنياتي، تعوزني التسمية، تبدو كل الكلمات أضعف من رغبتي في التعبير.

أعرف أني لست وحيدًا، وأن ملامسة طرف الخيط هو ما أتمناه، ثم أفلته قبل أن أطبق أصابعي عليه، أكتم ما أعددت نفسي لقوله، البوح بما أعانيه، أتبين سخف كل شيء، وأن الصمت يجنبني مزالق مؤلمة. أخشى البوح، قد يصطدم بحائط عدم الفهم، والاستغراب، والميل إلى المعابثة.

– لا أريد شيئًا.

– ألا تريد وظيفة أعلى ... زوجة ... إيرادًا محترمًا؟

– أرفض العنف.

– من تحدث عن العنف؟!

ثم وهي تتأمل أظافرها: إن زادت ثقتك بنفسك يسهل عليك اقتحام ما تخشى دخوله.

خفضت نبرتها، وأضافت بصوتٍ هامس: من نخاف منه، ربما يكون أشد خوفًا منا!

وبلهجة مازحة: نحن نذكر الربيع في بلادنا بزوابع الخماسين وظهور الصراصير.

ثم وهي تطلق ضحكة قصيرة، رائقة: لماذا لا نذكر تجدد الخضرة؟

لاحظت — للمرة الأولى — لون عينيها: بنيتان، صافيتان، أقرب إلى الاستدارة كأنهما لقطة، تشعان بريقًا اجتذبني، حرك في داخلي إحساسًا بالراحة والطمأنينة.

قلت، لمجرد أن أتكلم: أخشى القرار الغلط.

في نفاد حيلة: تصرف ... لا تحمل الأم وليدها طول العمر ... تتعجل اليوم الذي يمشي فيه بنفسه.

تأملت الثمالة المتبقية في قاع فنجان القهوة، ثم احتسته دفعة واحدة.

– لا تطلب من أحدٍ أن يُعنى بأمرك ... حل مشكلاتك بنفسك.

٧

حين أبديت ملاحظة عن المخرج السينمائي رأفت عبد المجيد، يسأل عن شقته الكثير من البنات، قالت الست جنات في تهوين: علاقته بالنساء محاولة لتعويض ذكورته الغائبة.

– تقصدين؟

وهي تقطع الهواء بظهر يدها: ليس له في النساء.

حدست أنها عرفت الأمر من قناوي، تكلمه — أوقاتًا طويلة — في وقفتها على باب الشقة، قامته المتوسطة، الممتلئة، وبشرته القمحية التي تناثر فيها النمش، وشعره الجعد، تركه دون تمشيط، تعرو فكه — وهو يتكلم — رعشة لا إرادية، تتآكل الحروف على شفتيه، فلا تبين في النطق، يخلط الكلمات، أو يبترها دون أن يستكمل نطقها، يرفض القسم بالله، يكتفي بالقول: صدقني، يقولها بعفوية تجتذب محدثه، يرتدي جلبابًا أزرق، وإن بهت لونه من كثرة الاستعمال.

هل ينكشف ما أعانيه في لحظةٍ ما، لا أتوقعها.

أنكفئ على نفسي، أسألها، أناقشها، أحاسبها.

تتماوج في داخلي مشاعر القلق والحيرة والخوف، أعيش الغربة والوحدة والانكسار، تعاودني — في فترات متقاربة — رغبة في البوح، الاعتراف، تمنيت أن يشير عليَّ أحد بما يجب أن أفعله، أطرد الميل إلى ما لا أستطيع أن أبوح به، السر الذي أخفيته طيلة حياتي، أعبر عن الصخب الزاعق في داخلي، كلام كثير، لا تطاوعني شفتاي على نطقه.

هل أحدثها عما أعانيه؟ هل تصدق روايتي لو حكيتها؟

لامست كلماتها رغبة البوح في داخلي، سرت في طرق متقاطعة ملتوية ومسدودة، طالعتني مفارق وتقاطعات، رؤًى يمتزج فيها الضوء والظل. أخاف أن أبوح، ثم يأتي الغمز واللمز والمعايرة، أفضل أن أكلم نفسي، أتخيل من أكلمه، أسأله ويجيبني، يسألني وأرد عليه.

تنامى الشعور أنها اقتربت بما يشجعني على المصارحة، ثمة صوت في داخلي، يريد أن يبوح بما طال كتمه، لماذا أخجل من البوح، ما دمت لم أسئ إلى أحد، ولا أخطأت بما يستدعي المساءلة.

رويت لها الحكاية، كأنها حدثت لشخص آخر، إذا عجز الإنسان عن تحقيق ما يحلم به، فإنه يحرص على كتمه، لا يبوح به، يترك الأمر للظروف، أو يواجه ما يصدمه.

مضت سنوات بعيدة على غياب منار عن حياتي، أعادتها مها، جددت حضورها، استرخاءها الهادئ، المستكين، تلبي ما أطلبه، شحبت في شمسها الساطعة كوثر وفردوس،

حتى جنات لم تعد في خاطري بالإلحاح الذي اعتدته، تجالسني، نتبادل الكلام، نشرق ونغرب، وحدها منار تظل هناك.

لاحظت تهيئي للاستطراد، حدجتني بنظرة متسائلة.

لامست — بعفوية — رغبة البوح، تكلمت عن الصخب الذي لا أستطيع كتمه. تدفقت الكلمات دون ضبط، وبلا اختيار، ما أريد البوح به قلته، تركت نفسي بلا كابح يمنع انطلاقها، حاولت أن أنطق الكلمة الصحيحة التي تعبر عما يشغلني، عن المعنى الذي استولى على كياني. لم أكن أمتلك شجاعة البوح، ما حدث بالفعل، وما أريده.

قاطعتني: لماذا تتكلم بسرعة؟

لم تكن هذه هي الملاحظة الأولى عن تسارع كلماتي، نبهني إليها عم سليم الساعي بسنترال المنشية، ونصح المهندس باسم العقيلي أن أبطئ في كلماتي حتى يسهل فهمي، فسرت الأمر بالخوف من أن يفاجئني ما لا أتوقعه إن حاولت اختيار الكلمات، يهمني أن أقول ما عندي، قبل أن يعلو سؤال، أو ملاحظة.

أدرت وجهي، أتقي نظرة عينَيها، إن تقاطعت نظراتنا، كنت مأخوذًا باللمعة في العينين البنيتين، يدفعني وميضهما إلى إحناء رأسي، كأني أعجز عن النظر إليهما، التقطت الإشفاق في عينيها، قلت ما لم أتصور أني أقوله لها، بحت بمشاعري، وما أحاول إخفاءه.

بترت الكلمات لنظرة توجس أطلت من عينيها. أومأت برأسها، فحاولت أن أزيح حملًا ثقيلًا، لا أعرف كيف واتتني الكلمات، ولا لماذا قلتها. لم أكن أنا الذي يتكلم، هو ذلك الصبي الذي أقعى تحت قدمي منار، يطيل النظر إلى الجسد الممدد، تناوشه تصورات يعجز عن فهمها.

شعرت أن الثقل قد انزاح من فوق صدري.

قالت وهي تطرق طرف الكرسي بإصبعها في إيقاع رتيب: لم تخطئ — كما قلت — مع منار ولا فردوس؟

شعرت أن تعبيرات وجهي تفضحني، وقواي تخونني، اتجهت بنظرتي إلى الناحية المقابلة، لأتخلص من عينيها.

– أغواني الشيطان مع كوثر ...

أطالت الصمت حتى استعدت نفسي، رمقتني بنظرة لائمة: نحن نحمل الشيطان ذنب أفعالنا الشريرة.

وأسندت ثدييها إلى أصابعها، وعدلتهما: لو لم يوجد الشيطان ... فمن نحمِّله خطايانا؟

٧

وضغطت بيدها على يدي: المرء قد يكون شجاعًا أو جبانًا، لكنه يظل — في كل الأحوال — بشرًا.

وكأنها تذكرت شيئًا: هل تحتفظ بالسر لنفسك؟ ألم تخبر أحدًا بالفعل؟

اكتفيت بهزة من رأسي.

قالت في لهجة مهونة: لا أرى فيما حدث مشكلة ... أغراك موقف بفعلة شيطانية، فنفذتها.

كان الألم يقتلني، لكن الابتسامة ظلت في موضعها على شفتي: والبنت الأولى؟

أومأت برأسها دلالة الفهم.

– إذا كنت فعلت ما فعلت في لحظات طفولة، فلا سبب يدعوك إلى معاودة ما حدث.

وأسندت راحتيها على ردفيها، ومالت بظهرها إلى الوراء، وهي ترمقني بنظرة متوجسة: نسيتها ... أليس كذلك؟

أيقنت — لثقتي في ذكائها — أن حالي لم يعُد يخفى عنها.

أربكتني قدرة عينيها على النفاذ إلى داخلي، تستطيع كشف كل ما يعتمل بنفسي، ما يختلج في صدري، كأنها تشاهد ما أعانيه، أو يشغلني. شعرت أن قواي بدأت تخونني، وأني عاجز عن الكلام.

رمقتني بنظرة متفحصة تتبين نيتي: أخشى أنك لا تبحث عن تلك الطفلة، ولا حتى من تشبهها، بل تريد ... ما اسمها؟

– منار.

رنوت إليها بلهفة، أنتظر ما ستقوله.

– أنت تريد منار الماضي، منار التي كانت، لم تحاول نسيانها.

تماوجت في نفسي مشاعر متباينة، الخوف والإحساس بالذنب. هزمني الشعور باليأس، لم يعُد الأمل في أي شيء موجودًا.

عكست عيناها إخفاقي في السيطرة على مشاعري.

– تلك حادثة قديمة، ننساها كأنها لم تكن.

تملكني الارتباك، لا أستطيع التخلص منه، لم أعرف — وهي تنتظر ناحيتي — ماذا يجب أن أقول، كأني أنتزع الكلمات: ألاحظ أنها تعاودني من فترة.

حدجتني بنظرة قلق: هل تريد تكرارها؟!

شوحت بجانب يدي: لا!

راقبت في عينيها قلقًا واضحًا: كنتُ نسيت. أعادته إلى ذاكرتي بنت في العمارة.

ثبتت عيناها في وجهي: بنت في عمارتنا؟!

وأنا أحول نظرتي إلى أرضية الحجرة: أسرتها في الطابق الثالث، قالت إن اسمها مها.

ضربت على صدرها: يا مصيبتي! ... مها خادمة الجيران؟ البنت في عمر حفيدتك؟!

قلبت شفتي: لعله حنين إلى الطفولة.

عاودت ضرب صدرها، حدقت في وجهي بعينَين متشككتَين: سأصدقك إن نسيت ذلك السخف القديم.

تضايقت من نفسي للارتباك الذي ربما ظهر على تصرفاتي.

هل أبدد العمر في تذكر لحظة أخاف أن أستعيدها؟ فرضها الارتباك، أو أن الارتباك هو حياتي، سحب سوداء تلاحقني، تبلغ حد الظلمة، لا أتبين منها ما يطمئن خطواتي في اتجاهها نحوه.

قرأت عن الاكتئاب، غمرني ما نسبته إليه. إذا كان الاكتئاب هو الملل والضيق والانفعال بلا سبب، فهو ما أعانيه، ربما هو ما أشعر به عندما أبتعد عن الناس، وأخلو إلى نفسي. أذهب — بالكاد — إلى السنترال، وأعود. لا أشارك — حتى بالإنصات — إلى آراء المهندس عاطف غيث، وتعليقات موظفي السنترال، تغمرني أعراض الشك والتوجس والتوتر والقلق، لا تشغلني رغبة من أي نوع، كل ما يشغلني أن أظل وحيدًا.

وجدت في جنات الشخص الذي أحتاج إليه، وإن لم أضع ذلك في بالي قبل أن تدخل حياتي.

جنات.

صرت أشد ميلًا لقضاء الوقت معها، نتكلم فيما يفد إلى خواطرنا، اختزلت فيها حياتي، أتعجل رؤيتها، لأحدثها عن أحوال السنترال والمواصلات ومشاهدات الطريق، ما جذب انتباهي من عبارات وتصرفات، الأوقات المفرحة والحزينة، إن عصاها التعبير، لجأت إلى حكمة، أو مثل شعبي، تستعيدها مؤمنة بهزة رأسها، ألفت رائحتها، رائحة لا أشمها في مكان آخر، وإن أعادتني — أحيانًا — إلى شقة الإسكندرية.

تأملت، وحفظت التكوين الجسدي، وملامح الوجه، خصلة الشعر النافرة من تحت الحجاب، طريقة الكلام، الإيماءات، التعبيرات باليدين، لحظات ارتفاع نبرات الصوت، وخفوتها، في لحظات الفرحة والحزن، طريقة المشي، والقعاد، والوقوف، والمشي. بدت الجونلة التي تصل — بالكاد — إلى ما فوق الركبتين تناقض الإيشارب الذي أحاطت به رأسها.

عندما حاولت أن أتصور عناقي لها، غلبني التوتر، نفضت رأسي لتصور علاقة جسدية بيني وبينها، شحب التصور في شخصيتها، خشيت — إن أذنت — عجزي عن فعل شيء.

أجاهد لمداراة مشاعري، ما أكتمه في نفسي. أحاول الفرار من التخيلات: التفاف ساعدي حول عنقها في مشيتنا المتجاورة، نتأمل فاترينات المحال في وسط البلد، أحملها إلى السرير، أنزع حذاءها، أقبل أصابع قدميها، أمسد ساقيها براحتي، أفك أزرار البلوزة، أنحِّي البلوزة والجونلة في تحسسي جسدها.

هل جاء كل شيء في أوانه، أو سرقني الوقت؟!

لو أني التقيتها منذ سنوات، ربما تغيرت حياتي.

ملأت جنات دنياي.

صارت كل عالمي.

كان عدم التصديق واضحًا في ملامحها وتعبيراتها، حتى بعد أن عادت من عيادة الطبيب.

نزعت الإيشارب من حول وجهها، كورته، وضعته على الترابيزة أمامها. تحرص على ارتداء الملابس المحتشمة، ليست العباءة ولا النقاب، بل تايير طويل الكمين، ينسدل إلى نهاية ساقيها. لم أعد أربط بين تصرفاتها المفاجئة وتوقعات لا تحدث، هي عفوية التصرفات، لكنها تحرص على الحاجز غير المرئي بيني وبينها، أكتم ما قد يثور في نفسي من مشاعر صاخبة، ولا أجاوز موضعي.

خلعت الحذاء، ودلكت — وهي تتأوه — أصابع قدمها.

– ثلاث ساعات أنتظر الطبيب.

سألت: خيرًا؟

– لم أكن عند الطبيب، وإنما كنت عند الجنون.

وهي تصلح بأصابعها من فوضى شعرها: زرته ليعالجني من التوتر، هبَّات توتر تفاجئني، خفت أن تكون نتيجة مرض.

وأسلمت نظراتها لما يشبه الشرود: قبلها كنت أشعر — على فترات متقاربة — بسخونة مفاجئة، تصعد من ذقني إلى رأسي.

ظللت أحدق فيها.

– فاجأني الطبيب بالقول: هل لديك أصدقاء؟ التقط نظرتي المستغربة، أقصد مَن نشأت بينك وبينه علاقة خاصة.

واتجهت ناحيتي: صدقني، جئت في بالي، وكدت أنطق اسمك.

ظللت صامتًا، وإن تمازجت الحيرة والنشوة في داخلي.

لاحظت ارتعاش صوتها.

– تبينت أنه يعني صداقة لا أريدها.

ربتت ركبتي، وقالت لنظرتي المتسائلة: سألني الطبيب: قلت إنك أرملة؟

أومأت برأسي، وظللت صامتة.

وهو يتهيأ للإنصات: هل تأتي الدورة الشهرية في موعدها؟

حاولت أن أستعيد صوتي: أقترب من الخامسة والأربعين.

لم يتخلَّ عن هدوئه: عمومًا ... مشكلتك لا صلة لها بالإنجاب.

ونقر الفراغ بإصبعه.

– أنتِ في حاجةٍ إلى الجنس.

وأنا أشير إلى نفسي: أنا أرملة ... يعني غير متزوجة.

دون أن يغادر نبرته العادية: لا شأن للجنس بالزواج ...

وقال للدهشة التي ارتسمت في ملامحي: لا تهملي طاقتك الجنسية بلا إشباع.

أحسست بما هو أقسى من الغضب، تمنيت أن تنشق الأرض، وتبتلعني.

– هذا حرام.

اتجه ناحيتي بنظرة محدقة: خلق الله الغريزة لنرضيها.

وجرى على الدفتر أمامه بالإنجليزية: قد يكون الجنس وسيلة الشفاء.

همست بالحيرة: ألا يوجد دواء؟

في نبرة حاسمة: هذا هو الدواء.

ثبتت نظرة جنات على نقطة بعيدة، مجهولة: أغضبني التصور أني لا أستطيع العيش بدون رجل.

شاب نبرة صوتها استياء: لماذا أخضع أفكاري لنصفي الأسفل؟!

أردفت في استيائها: مأساة المرأة أنها أنثى تحيا في زمن ذكوري.

وعلا صوتها بالبحة التي أحبها: لماذا لا يكون الرجل مثل ذكر النحل، لا أطلب موته، لكنني أطلب ابتعاده!

تعلمت من جنات ما لم أرَه في مها، ولا لامسته في كوثر، ولا في فردوس، هي الجنة والضوء والظل، أحببتها لحد أني ألغي التفكير فيها — أحيانًا — كامرأة، كأنثى.

إن واجهت مشكلة، بدت لي جنات طوق نجاة في المالح، تأخذني — بنصائحها — إلى بر الأمان، يلحُّ في داخلي ما يضايقني، أتعجَّل الوصول إلى البيت لأكلمها بما أعانيه،

أعد أسئلة، أتصور أنها ستوجهها لي، وأجوبة أعدها لأرد عليها، لكنها تكتفي بالإصغاء لما قلت، تطيل الإنصات، فأشك أنها تتظاهر بغير ما تفعله، لكنها ترنو بنظرة مشفقة، تستكمل تصورها بأسئلة أرد عليها، ثم تحدجني بنظرة كأنها تتفحصني، تبدي — بعدها — ملاحظة، أو تنصح بما ينبغي فعله، تفطن بسهولة إلى ما تعكسه نظراتي، ما يجول بخاطري.

صارت لي في موضع الصديق الذي أودعه أسراري، أفيد من نصائحها فيما أعانيه من مشكلات، كلٌّ منا يحتاج إلى الآخر، ولو للبوح والمسامرة وطلب النصيحة.

بدت مختلفة عن كل من عرفتهم، رجال أو نساء، هي إنسان متفرد، تملك نفسًا طيبة، لكن الحاجز غير المرئي لا يأذن بالتجاوز.

يحل الصمت، أشعر أنه لم يعد لدينا ما نتكلم فيه، أترك لتصوراتي اختراع مواقف ومناقشات، أحاول فيها تغليب وجهة نظري بما يعوض حاجتي الدائمة إلى نصائحها، ربما أمضيت الساعات، أجري حوارًا بيني وبينها، ألتقط الجملة والكلمة، أتهيأ للسماع، أختار ما يجب قوله، أتأمل، أقلب، أستقر على ما أجده صحيحًا.

مسحت بأصابعها تقطيبة جبهتي: ما لك؟

وأنا أضع يدي على صدري: قلبي ... دقاته متسارعة.

– هكذا الحب!

هززت رأسي بما يعني عدم الفهم، عرفت من نظرتها أنها تنتظر أن أقول شيئًا، لكنني لم أجد ما أقوله.

– من هي حبيبة القلب؟!

أخذني السؤال، لم أكن أتوقعه، فكرت لحظات قبل أن أجيب: لا توجد.

أربكتني نظرتها المتسائلة، كأنها تريد أن تنفذ إلى ما أريد قوله.

– إذا تركت أصدقاء لك في الإسكندرية، فحاول أن تُنشئ صداقاتٍ في القاهرة.

سعد!

لم يكن لي صديق غيره، هو الذي حافظ على صداقتنا، أصر ألَّا تنتهي، يدركني الملل، أو أبتعد، تظل البسمة على شفتيه في تواصل زياراته.

لا أتصور — في حياتي — شخصًا آخر سواها، الرفقة والصداقة والحكي والنصيحة.

لم أحاول سؤالها — حتى لا تصدني — عن أمور حياتها بأكثر مما روته لي، وجدت في نثار كلماتها ما يغني عن الأسئلة.

حدثتني عن حبها للأطفال، ومشاعر الأمومة التي تحركها رؤية وليد بين يدي أمه، لا يعروني الخجل وأنا أستمع إليها، ولا تجد في نفسها ما يخجلها من تبديل ملابسها أمامي، تخفي قلقها من تباعد مواعيد الدورة الشهرية، هل هي أعراض طارئة، أو أن الطمث انقطع؟

ربتت ركبتي بأطراف أصابعها: صلِّ على النبي.

وأنا أتأمَّل الحنان في عينيها: عليه الصلاة والسلام.

– زد النبي صلاة.

– عليه أفضل الصلاة والسلام.

– رأيت في المنام حلمًا، لشدة ما تذكرته تصورت أنه حدث بالفعل.

أضافت إلى ملامحي المنتبهة: لقيتني في داخل بيت مهجور، أو خرابة، أعاني الخوف مما يُحيط بي من أشباح وحيوانات، اختلطت أشكالها القبيحة، فصارت بلا شكل محدد، في اللحظة التي كدت أموت من الخوف، ظهر في طرف المكان ضوء كشمس الظهر، توسطه وجه له ملامح عبد العليم، ويهز رأسه بابتسامة تدعوني إلى الاقتراب منه، أو تستأذن في الاقتراب.

عاودت ربت ركبتي: ما تفسير هذا الحلم؟

– أنا أحلم، وأنسى ... لا أحاول تفسير أي شيء!

لم أتدبر السؤال: ألا تفكرين في الزواج؟

طوت قدمًا تحت فخذها، ودلت القدم الأخرى في الهواء: لكنني متزوجة.

– أنتِ أرملة.

شفَّت عيناها عن التماع ساحر: وعدته بأن أظل له.

وهي تمرر جانب يدها على رقبتها دلالة الموت: لو أن عبد العليم كان حيًّا، ما استطعت أن أقف أمام باب شقتك!

وفردت أصابعها الخمس أمام وجهها دفعًا للحسد: النسمة على خدي كانت تضايقه!

٨

تبدلت الشوارع تمامًا، ألتقي المظاهرات في طريقي إلى السنترال، وعودتي منه، يعلو التلويح بقبضات الأيدي واللافتات والشعارات والهتافات، حاذيت شابًّا يعتلي كتفَي آخر، وانطلق صوته يسبق المتظاهرين بالهتاف: الشعب يريد إسقاط النظام!

أكتفي بإلقاء نظرة عابرة، ثم أواصل السير في اتجاه شارع الأهرام.

توالت التحذيرات في الراديو والتليفزيون من محاولات التظاهر، للابتعاد عن المظاهرات، في اختراقها للخليفة المأمون حتى قصر الاتحادية، خالفت — أحيانًا — سيري اليومي، أمضي في الناحية المقابلة لشارع الأهرام، أميل من شارع الكوربة حتى شارع الحجاز، أسير بحذاء سور الميريلاند، في اتجاه جسر السويس، يبدو السنترال في مدى الرؤية، فأمضي ناحيته، أعود إلى البيت من الطريق نفسه، إجازة يوم الجمعة أمضيها في السرير، لا أنزل منه إلا لقضاء حاجةٍ في المطبخ، أو الحمام.

اختزنت كمية من البقول والأرز والمكرونة، أودعت الثلاجة أطعمة أخشى فسادها، تغنيني عن مغادرة الشقة، تظل المظاهرات، وما تحمله من نتائج، بعيدة عن حياتي، يغلبني الملل، أتمدد في السرير، لا أقرأ، ولا أشاهد التليفزيون، أو أستمع إلى الترانزستور، أكتفي بالتحديق في السقف، أشرد في ما مضى، تسعة وثلاثين عامًا خلفتها ورائي، لم أحقق شيئًا ما تصورت أني سأحققه، أو أسير في اتجاهه.

لا أذكر الكلمات التي طلبت بها نصيحة الصيدلي، أسفل البيت. أعدت قراءة ما قاله: «تريبتزول.» لحقني صوته وأنا أميل إلى البيت: حبة واحدة قبل النوم.

لم يعد من الحكمة أن أغادر الشقة، ولا البيت، اقتصر الأمر على الاستجابة لطرقات جنات، أجد فيها الونس الذي أفتقده في الوحدة داخل الشقة، لم أعد أطيق الوحدة، ضاقت نفسي بها، طالت مدة قطع الإنترنت والتليفون المحمول، أستمع — عبر نافذة المنور — إلى

حركة الطريق، التفصيلات شاحبة، لكنني — بالتخمين — أفسر ما يجري، أنتبه إلى اقتراب المظاهرة، تتلاشى الأصوات الهاتفة، أعرف ابتعادها، لا أتبين نوعية الشعارات، وإن أدركت خطورة ما يجري من أصوات قنابل المولوتوف، وطلقات الرصاص والخرطوش، ورائحة قنابل الغاز.

قالت جنات: تأخرت أمس ... أين كنت؟

ووشى صوتها بالقلق: المحمول لا يرد.

وأنا أتحسس جيبي: نسيته!

– قلقتني عليك.

أرخيت عيني حتى لا تكشف ما أحاول مداراته: خطفت رجلي إلى ميدان التحرير.

عاودت ضرب صدرها: تريد الموت؟!

وتنهدت: كنت أظن أني ودعت القلق برحيل عبد العليم. أعدته لي أنت بما لم أتوقعه.

همست بتهوين: الميدان يشغي بالألوف.

وضعت ظهر يدها على جبهتي، تتحسسها: ماذا فعلت بنفسك؟!

– أنا لا أمتلك شيئًا أخشى فَقْده!

التمعت عيناها بالدمع: حياتك غالية.

أخفقت في العثور على كلمات أعبر بها عن امتناني لتصرفها، تمنيت أن أعانقها، تحركت في وقفتي تأهبًا للفعل، لكنني خشيت أن تجد في تصرفي ما يغضبها.

وأنا أنظر إلى اللمبة المدلاة من السقف: كما فعل بقية الناس.

فطنت جنات إلى ما أعانيه، رغم تصوري أني أجدت إخفاء مشاعري.

– في السماء نجمة تبشِّر بالخير.

ثم وهي تلمس بإصبعها التقطيبة بين حاجبي، كأنها تريد محوها: نراها في الليل إذا خلت السماء من الغيم.

وربتت كتفي: حان — فيما يبدو — زوال الغيم.

لست أعرف ما الذي اتجه بي ناحية الميدان.

أشعر أن شيئًا ما تغير يصعب تحديده، لكنني أراه في الحياة من حولي. لا أشتري الصحف، أتابع الأنباء من التليفزيون، أو في مناقشات السنترال، وفي ملاحظات الست جنات.

في شقتي، لم أكن أعرف ماذا تفعل المظاهرات خارج البيت. تترامى أصوات لا أحاول تبينها، أعرف أنهم يهتفون ضد مبارك، اعتدت كلمات المهندس عاطف غيث ضد الرجل في جلسات السنترال، حواسي كلها تتجه إلى الميدان الذي يغص بالبشر.

يرتبط الميدان في ذاكرتي بالمظاهرات: في ثورة ١٩١٩، ضد قوات الإنجليز عقب الحرب العالمية الثانية، مظاهرة الطلاب — بعد هزيمة ١٩٦٧ — ضد أحكام قادة الطيران، رفض حالة اللاسلم واللاحرب في ١٩٧٢، انتفاضة الجوع في أوائل ١٩٧٧، سماها السادات انتفاضة الحرامية. أحداث أخرى كثيرة، شهدها الميدان قبل أن أولد، عشتها، وإن لم أشارك فيها، آخرها ما يجري هذه الأيام ضد الرجل الذي رفض أبي — يوم ولادتي — أن يختار لي اسمه.

توالي الأحداث ألغى قناعات كنت قد اطمأننت إليها، بدت حقيقة يسهل تصديقها.

تذكرت — وأنا أميل إلى شارع إبراهيم اللقاني — أني لم أعد ألتقي مها، تسأل عن سقوط قطعة ملابس، تعبر باب الشقة المفتوح نحو السلم، أصادفها في الشارع، أزمعت أن أجد سببًا لسؤال جنات عن غيابها.

هل تركت أسرتها البيت؟

ترامت هتافات.

سرت إلى جانب الرصيف حتى تبتعد المظاهرة، تعرف العين المتابعة أني أسير بمفردي، الشوارع الجانبية، والبعيدة عن أطراف المظاهرة، خالية، والمحال القليلة — على الجانبين — مغلقة، وسينما هليوبوليس أوصدت الباب الجرار بالجنازير، وثمة وجوه تطل من النوافذ المفتوحة.

أخذني صوت المهندس عاطف غيث — داخل القاعة الواسعة — يعلو بالسؤال: هل بدأت النهاية؟

كان قد مضى أربعة أيام لم يجلس المهندس عاطف في مكتبه. قال فوزي النمر إنها إجازة عارضة، فطنت إلى أنه — ربما — ينزل ميدان التحرير.

قال المهندس عاطف غيث وهو يطلُّ على المظاهرات في شارع جسر السويس: إما أن تنجح الثورة، أو يضيع الأمل.

قال فيكتور المطيعي: ما حدث مفاجأة، وإن كنا ننتظره.

قال الحاج السيد البدوي صالح: ننتظره ولا نتوقعه.

ضرب المهندس عاطف غيث حافة المكتب بقبضة يده: ما حدث كان لا بد أن يحدث.

المدرعات في الميادين، وعلى نواصي الطرق. نحيت نظراتي عن عرض الممرضة الواقفة أمام سيارة الإسعاف بميدان رمسيس، أجدد دمي بتبرع لتر لمصابي المظاهرات، الجنود والدبابات في المسافة بين ميدان عبد المنعم رياض وميدان التحرير، لفَّني ارتباك، بدت العودة إلى شارع الجلاء تصرفًا مناسبًا.

أغلقت أزرار البلوفر، أحاول اتقاء برد يناير، سرت — وحدي — بين آلاف المتظاهرين والجنود، وباعة البطاطا والفشار والساندوتشات والحلوى والبلح والسجائر، وأعلام مصر وأغطية الرأس والبالونات الملونة وعربات الفول والكشري والترمس، ولحمة الرأس والكسكسي وباعة السميط والعرقسوس، ونصبات الشاي، وصوانٍ عليها أكواب الزنجبيل، يفيد في نقاء الصوت ليسهل الهتاف، يملؤني الشعور بالغربة والضياع، بالخواء، أشبه بالبناء المحترق للحزب الوطني، كل ما كان في داخلي من مشاعر وأمنيات، انتهى إلى الخواء الذي يتمطى في البناء المطل على النيل.

ظلت يداي إلى جانبي، أثناء توزيع السندوتشات على المحتشدين، تشككت في أن تكون مسمومة، أعرف أنهم سيلجئون إلى كل الوسائل لإنهاء ما يجري.

أول مرة أشاهد زحام الميدان عن قرب، اختلاط الأصوات والروائح وما لا يسبق لي رؤيته.

الحشود مغايرة لما شاهدته في التليفزيون، زحام من البشر، لولا أن الناس يحشرون — يوم القيامة — عرايا، ما اختلف عن زحام الناس أمامي، وإن فر الناس إلى الميدان، الصورة العامة في التليفزيون بلا تفصيلات، حتى لو اقتربت العدسة. المشهد أمامي، يحفل بالنداءات والهتافات والإيماءات والأسئلة والكلمات المبتورة. ثمة من يطلون من الشرفات، يلوحون بالأيدي، أو يهتفون، أو يدخلون في مناقشات، وثمة من أخذ — بالكاد — جانبًا، وبسط جريدة، يصلي فوقها.

سرت في ظهري ارتعاشة، لما بدأ الشاب ذو البشرة الشقراء تمسيد ثيابي، لعله الخوف من أن يجد في جيوبي ما يشي بالخطر.

وجدت منفذًا إلى الميدان، بين الدماء المتجلطة وقطع الحديد والعِصِي المتكسرة والحجارة، وأعمدة الإنارة المنزوعة وبقايا الإطارات والسيارات المحترقة والصناديق الفارغة.

تقاطعت اللافتات بالعربية ولغات أخرى، ميزت منها الإنجليزية، وإن لم أعرف بقيتها.

قاومت التردد في اختراق الحشود الهائلة، دفعني المتظاهرون القادمون من الخلف، أسلمت نفسي للتدافع، صرت في قلب الحشود تمامًا، كأني ألقيت نفسي في بحر لا أرى آفاقه، أمواجه تبعد بي عن الشاطئ، تجذبني إلى الأعماق.

غمرني اهتمام لما يحيط بي، ما أنا في داخله، من الزحام والهتافات والشعارات، اختلاط الوجوه والأعلام، وأسماء ماسبيرو ومحمد محمود، ومجلس الوزراء والعباسية والخليفة المأمون، وأسياخ الحديد، والحجارة، وقطع الرخام المنتزعة من الأرض، والإطارات المحترقة، والدخان الخانق، وأوراق الصحف، وأكياس البلاستيك، وبقايا الطعام، والفضلات الآدمية، وكبسولات القنابل، والدماء المتجلطة، والروائح النفاذة.

كل ما حولي كأنه طاقة بخار مكتومة، تهم بالانفجار.

ظلت في داخلي مشاعر التوقع والقلق والخوف، أتصور الجسد البشري الهائل يتفتت في لحظة، يتحول كل شيء إلى فوضى، أواجه ما لا أتصوره، ولا قبل لي باحتماله.

انتفضت لأصوات طلقات مفاجئة، تكاثفت وسط الناس أمامي — في اللحظة التالية — سحابات من الدخان الكثيف، ما بين السواد والبياض، وصلني انتشاره بأسرع مما قدرت، أحسست بالدموع في عيني، واقتحم الدخان مسام جسدي.

ما صلة إسالة الدموع بالاختناق؟

كأن يدًا ضاغطة تقبض على عنقي، تكتم صدري، دارت بي الأرض، لم أعد أعرف أين أنا، ولا ما ينبغي أن أفعل، لا أقوى على التفكير، أو الحركة.

حاولت التراجع، لكنني اصطدمت بالأجساد المتلاصقة، المندفعة. تلفت، أبحث عن مكانٍ للنجاة، منفذ آمن للخروج.

عدلت عن محاولة النفاذ من بين الأكتاف، إذا وقعت على الأرض، فلن أفلت من دوس الأقدام.

شحبت الرؤية، التف كل شيء في غلالات كثيفة، كأن المتظاهرين أطياف يحوطها الغيم.

قال شابٌّ غابت ملامحه: القناصة يطلقون الرصاص من أعلى الجامعة الأمريكية.

انقطعت اللحظة عما قبلها، وبعدها، حل شيء بلا ملامح محددة، وبلا انتهاء، لم أستطع مغالبة الخوف، خوف هائل، مسيطر، تملكني تمامًا، كأن أحدًا يلاحقني، أحسست أن ساقي جمدتا في مكانهما، وأن لساني التصق بحلقي، ففقدت القدرة على النطق.

تعالى — فجأة — صوت رصاصات، أمسكت — بعفوية — ساعد الواقف جواري.

حين بدأ المتظاهرون — من حولي — في الفرار إلى الشوارع الجانبية، جريت بآخر ما عندي، لا أعرف إلى أين، أبواب البيوت والدكاكين — على الجانبَين — مغلقة، والنظرات تتسلل — بالفضول — من النوافذ المواربة.

اندفعت — بآخر قوتي — أجاوز إشارة الرجل ذي الجلباب نحو باب البيت، خشيت أن يكون الخطر ماثلًا خلف الباب الموارب.

وقفت متلفتًا – لا أصدق نجاتي من الموت — في الساحة المقابلة لدار القضاء العالي، أصداء طلقات الرصاص وقنابل الغاز، وسارينات سيارات الإسعاف، تترامى عبر الشوارع والبنايات.

حين وجدتني في الشقة — عقب عودتي من التحرير — تأملت ما جرى.

قالت الست جنات للتأثر الذي عكسه خطاب مبارك: لم أصدق كلمة واحدة!

– ربما كان صادقًا.

– حتى ريجان وصفه بالكذاب.

واتسعت عيناها بالغضب: إن كان سيرحل ... فلماذا لا يحدث ذلك الآن؟

التفتُّ ناحية صوت قناوي في وقفته على باب الحجرة: التقيت مظاهرة قادمة من الخليفة المأمون ... اكتفوا بالنداء: ارحل!

بدَت عليه حيرة، وهو يكثر من إدخال إصبعه في فتحة أنفه، يتأمل الإصبع، ينفضه بإصبع أخرى.

– من يقصدون؟

صاحت جنات في عصبية: ألا تعرف أن مبارك هو المقصود؟!

قال في عدم فهم: الرجل لم يقتل ... لماذا يطلبون عزله؟

وأنا أتحسس الكلمات، أخمن وقعها قبل أن تنطقها شفتاي: أسهل شيء إدانة ظلم مبارك.

هتفت في استنكار: لا بد أن نحاسبه على ظلمه؟

وشت نبرة صوتها بانشغالها فيما لم تظهره ملامحها: لا أبرئ المصريين من قبول تشويه طبيعتهم، وهي أن يرفضوا الظلم.

واتتني جرأة: للحاكم حق الطاعة.

علا صوتها بالانفعال: وواجب العدل.

عرفت أنها اعتبرت ما قلت تعاطفًا مع الرجل، قالت: لا تدافع عن الشيطان.

وحدجت عينَيَّ في صمت، كمن تختبر وَقْع كلماتها: فعل في أجساد الناس ما هو أفظع من الموت!

وفي صوتٍ يحمل نبرة إدانة: قد نستطيع تناسي الماضي لكننا لا نستطيع نسيانه.

خيل لي أني استمعت إلى حركة في المنور، هممت أن أفتح الباب، لكن يدي تركت المقبض، خفت أن أواجه ما يؤذي، ولا أستطيع مغالبته.

تركت الباب مفتوحًا، وتمددت على السرير، أرهف السمع لأصواتٍ تترامى من وراء الباب المغلق، عرفت — في الصباح — أن النوم سرقني، فغاب ما كنت أخافه.

أزمعت أن يظل باب الشقة — وأنا في الداخل — مفتوحًا، أصيخ سمعي لكل حركةٍ ناحية باب البيت، أو أطيل وقفتي أمام الشقة، أنصت إلى الست جنات فيما ترويه، أو أسأل قناوي عن حركة الشوارع حول مبنى الاتحادية: هل فتحت، أو لا تزال مغلقة؟

أحاول التأكد من عدم استرقاق السمع خلف الباب المغلق، أخشى المجهول، وغير المتوقع، كأني أفر من جريمة لا أعرف طبيعتها.

تداهمني — بلا سبب — هواجس ومخاوف، أفتح التليفزيون عن آخره، أضيء لمبات الشقة، حتى اللمبة فوق الباب الخارجي.

انتبهت على ضغطة الجرس.

كنت أتطلع إلى التليفزيون، وأجري على وجهي بمعجون حلاقة الذقن. لست من محبي النظر إلى المرآة، حتى حلاقة الذقن التي تشترط مواجهة المرآة، أمارسها في أي مكان. اعتدت إزالة الذقن دون أن أنظر إلى وجهي، أكتفي بتحسس المواضع الخشنة، وما أزيل من شعر.

اليوم إجازة.

الضغطة الثقيلة على الجرس، تمضي بي نحوه، في بالي — وأنا أفتح الباب — هيئة الرجل ذي السحنة الجامدة، يسأل عن سكان الشقة، والمترددين عليها، يراجع بطاقة الرقم القومي، يجول — بنظرة متأملة — في صمت المكان، آخر ما أعتاد سماعه، وأنا أتأهب لإغلاق الباب: أبلغنا بكل جديد.

هل لرنين الجرس صلة بوقفتي في ميدان التحرير؟ هل جاءوا لأخذي، كما فعلوا مع عبد العليم؟

تملكني التحفز، تأهبت لما تغيب ملامحه، ربما لم تَسِر حياتي بالكيفية التي أريدها، لكن الأمر يبدو قابلًا للمراجعة والتعديل، يجب أن أضع حدًّا لكل ما أعيشه، لكل ما يحيط بي، لم يعُد أمامي سوى دَفْن مشاعر القلق والخوف، وإهالة التراب عليها، أزمعت أن أبدو

شرسًا، قاسيًا، أخيف الناس، أصدهم عني، أردعهم، أفعل ما لا يخطر على بال أحد، ولا توقع أن يصدر عني، طبيعتي المسالمة تمنعني من الفعل، يساعدني مظهري القوي على ادعاء القسوة، أعطي الأوامر بإيماءة أو بإشارة، لا أحد يناقش أو يسأل، يلبُّون ما أطلب في استجابةٍ صامتة، ألجأ إلى القوة الهائلة في داخلي، تملي تصرفاتي، تدفعني إلى التصرفات العنيفة والكلمات التي لا أتدبرها والعراك، أوقظ في أعماقي وحشًا أريده، مخلوقات الغابة تأكل نفسها، كل مخلوق يبادر بالتهام المخلوقات الأخرى، يدفع عن نفسه توقعات الأذى.

هذا ما ينبغي أن أفعله.

هززت رأسه أطرد النوم، ثم أعدت النظر لأتأكد من وقفة قناوي على مدخل الباب، قامته المتوسطة، الممتلئة، وبشرته البيضاء، المنمشة، وشعره الجعد.

– الشركة تريد الشقة.

أحسست بالكلمات على شفتَيَّ، متثاقلة، عاجزة: لماذا؟ هل حدث شيء؟

– ربما يريدونها لنشاطهم.

رفعت صوتي لأتخلص من الارتباك: والعقد؟

وهو يفرد كفَّه في قلة حيلة: إيجار جديد ... يعتذرون عن عدم تجديده.

شعرت بالخوف يتسلل إلى داخلي، خوف غامض، لا أدري بواعثه، يستقر في أعماقي، تملكني الخوف، أحسست بتيبس شفتي. لم أكن واثقًا من قدرتي على التصرف بما يعيد كل شيء إلى موضعه، أشعر أني سأفقد شيئًا غاليًا، لن أستطيع استعادته.

لم أجد ما أقوله للرجل، اختلطت المعاني في رأسي، فغابت الكلمات، حاولت أن أسيطر على نفسي، أتماسك، لا يبدو عليَّ شيء مما بداخلي، أعرف أنه ينقل أوامر رؤسائه، شعرت أن جسدي يثقل، لا يطيعني، وما يشبه التنميل يسري في أطرافي، بدت كل الأشياء — أمام عيني — سخيفة، ومملة، وأني مثل طائر عاجز عن الطيران.

ألقيت نظرة شاردة — من وراء قضبان نافذة المطبخ — على الساحة الترابية الصغيرة، خلف البيت.

إلى أين؟

هل تفارقني جنات؟ كيف أحيا بدونها؟ هل يتاح لي السكن في شقة كأنها دنيا صغيرة، لا صلة لها بالعالم من حولها؟ جزيرة يلامس أطرافها موج البحر، وإن ظلَّت في عزلة عنه؟

جنات وحدها تملأ حياتي، الأسئلة المشفقة، الإنصات، العين التي تكشف ما بالنفس، تهون، أو تدين، أو تنصح بالفعل الصحيح؟

لا أتصور أنه سيأتي وقتٌ لا أراها فيه.

ماذا يمكن أن أعانيه أو أواجهه، لو لم تكن جنات في حياتي؟ لو أنها لم تقدم الود وكلمات النصح؟

غابت التصورات عن علاقة بيني وبينها، تلاشت، لا أتوق إليها، لكنني سأفتقد الفهم والإحساس الدافئ والحنان.

هل يختفي ذلك كله، فأعود إلى ما تصوَّرت أني فارقته، يحدث ما يقطع الهدوء الذي أعيشه في القاهرة؟

لم يكن قلقًا ولا خوفًا ولا يأسًا، هو أقوى من ذلك كله، شعرت أني فقدت ما يربطني بما حولي، بدت الحياة بلا معنًى، والدنيا كريهة، لا تحتمل.

فكرت في أن أفعل شيئًا، أي شيء، للتخلص مما أعانيه.

لم أقدر الاحتمالات ولا النتائج، بدا ما سأقدم عليه حلًّا وحيدًا، ينهي الإحباط والفشل والقلق والخوف والمشاعر التي تجعل الحياة مستحيلة.

عاودني الخاطر من قبل، أجد فيه خلاصًا من متاعب كثيرة، ما لا أستطيع التغلب عليه.

قفزت الفكرة إلى ذهني — ذات عصر — وأنا أميل من شارع إبراهيم اللقاني إلى شارع الأهرام، خاطرة وامضة تداخلت في انشغالي بإعداد ما تختزنه الثلاجة، جاءت الفكرة — بعد ذلك — في العديد من المواقف، وتلاشت، ثم عاودتني في مواقف أخرى، ألحت كأنها لن تفارقني، بدا العالم ضيقًا وسخيفًا.

كيف تفطن جنات إلى فعلتي؟

تطرق الباب، فلا أرد، يسألون في السنترال، تضيف إلى السؤال — وهي تضغط الجرس — قلقًا، تطل من نافذة المنور، تتأكد أني لم أفتح نافذتي المجاورة.

لن يحزن من يعرفونني، أو أنهم سيتأثرون قليلًا؛ لأن معرفتي بهم عابرة، صمتي في جلسات السنترال لن يخلف ما يستعيدونه.

حتى جنات، قد أسبب لحياتها ارتباكًا، وربما تغضبها فعلتي، أو يحزنها اختفائي من هذه الدنيا، تحزن لذلك الطارئ في حياتها، ثم تنسى رقدتي على طاولة التشريح في المستشفى، أو في مقابر الصدقة. ارتباكي الدائم قد يظل في ذاكرتها أيامًا قليلة، ثم تنسى.

تناولت حبات التريبتزول من فوق الكومودينو، فككتها، تأملتها على راحة يدي، أزمعت أن أهمل الإرشادات، حبة واحدة كل مساء، عشرين حبة أجرعها دفعة واحدة،

وينتهي الأمر، لا منار ولا كوثر ولا فردوس ولا مها، ولا خوف أو قلق أو مؤامرات أو عنف أعجز عن مواجهته، لا توقعات بلا نهاية. حتى تحذيرات جنات ونصائحها، بلا قيمة، أشبه بالنصائح التي يردِّدها الشيخ لمن وسد التراب.

قربت الحبات من فمي، أذكر قول الصيدلي: حبة واحدة تكفي. أذكر تحذيرات الروشتة: لا يصرف، ولا يكرر صرفه، إلا بتعليمات الطبيب.

أغمضت عينَيَّ، حاولت مغالبة ارتعاشة الشفتَين، ثم أهملت تساقط الحبات من يدي.

محمد جبريل

مصر الجديدة – ديسمبر ٢٠١٣

هنداوي